نظرات في أحاديث الرسول ﷺ

(١)

إذا زخْرَفْتم مَساجِدَكُم . .

وحَلَّيْتُم مصاحِفَكُم . .

فالدَّمار عليكُم

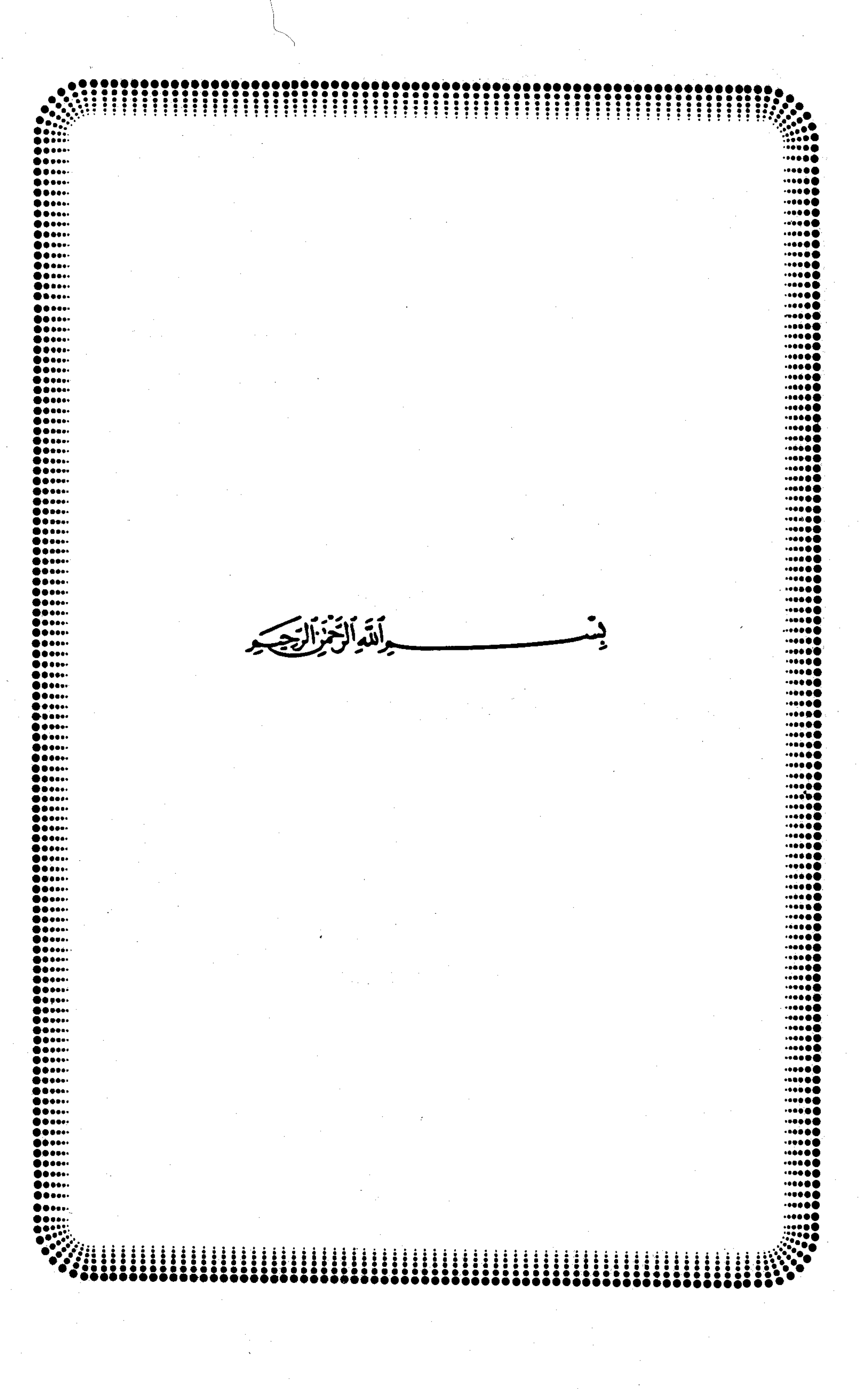
المَظْهَرِيَّةُ الجَوْفاء

وأَثَرُها في دَمارِ الأمَّة

تأليف

حسين بن عودة العوايشة

دار الهجرة للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



المَظْهَرِيَّةُ الجَوْفاء
وأَثرُها في دَمارِ الأُمَّة

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار الهجرة للنشر والتوزيع

هاتف: ٨٩٨٣٠٠٤ (٠٣) الثقبة - ٤٧٩٢٠٥٥ (٠١) الرياض

فاكس ٨٩٥٢٤٩٦ (٠٣)

ص . ب: ٢٠٥٩٧ - الثقبة ٣١٩٥٢

المملكة العربية السعودية

المقدمة

إنَّ الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَموتُنَّ إلَّا وأَنْتُم مُسْلِمونَ﴾(١).

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً ونِساءً واتَّقوا اللهَ الَّذي تَساءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقيباً﴾(٢).

﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ وقُولوا قَوْلاً سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُم ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء: ١.

عَظيماً﴾ [1].

أمّا بعد؛ فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمَّد، وشرّ الأمور محدَثاتُها، وكلّ مُحْدَثَة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضَلالة في النار.

وبعد:

فقد تبدَّلَت الموازين، واختلفت الأفكار؛ أقبلَ النَّاسُ على المسيء، وأعرضوا عن المُحسن، أنكروا المعروف، وألِفوا المنكر، كُمِّمَتِ أفواه أهل الذكر والقول والبيان، وتعالت أصوات مَن ليس لهم في عير العلم ولا نفير الفَهْم، وَوُسِّدَ الأمر إلى غير أهله، وغاب أهل الحلِّ والعقْد عن الأسماع والأنظار، فاستوى عند الناس عدمهم ووجودهم، أصبحت الزينة هي الأمر المروم، وغدت الزخرفة مبلغ الهمّ، وأضحت الشهرة طموح الطامحين، وسمعْتَ في خطبة الجمعة نصْب الفاعل، ورفْع المفعول، وضمّ المضاف إليه؛ كل هٰذا وأنت ترى مِن حولك ـ أو في المسجد ـ مَن يدرِّس ويجيد النحو واللغة، ولكنَّه عن مواضعِ العلم معزول!

فإذا قُمتَ إلى الصلاةِ؛ سمعتَ الإخفاء إظهاراً، والإظهار إخفاءً، وسمعْتَ ما لم تسمع مِن القُرَّاء؛ يفعل الإمام الخطيب ما يفعل، وهو يعلم أنَّ في المسجد شيوخاً وأساتذة في القراءة والتَّرتيل.

فإذا ما خَرَجْت من المسجد؛ تمنَّيْتَ أن تكون الرؤية مناماً، والمنام حُلماً.

---

(١) الأحزاب: ٧٠ و٧١.

شَغَلَتْنا زخرفة المساجد؛ عن عمل أهل المساجد الحقيقي، وأبعَدَتْنا تحلية المصاحف؛ عمَّا فيها من الأوامر والنَّواهي.

وهٰـذا يذكِّرنا بما صحَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً، وهو مرفوع إلى النبي ﷺ حُكْماً، أنَّه قال:

«كيف أنتُم إذا لبِسَتْكم فِتنةٌ يَهرم فيها الكبيرُ، ويربو فيها الصغيرُ، ويتَّخِذها الناسُ سُنَّةً، إذا تُرِك منها شيءٌ قيل: تُرِكت السنة؟ قالوا: ومتى ذاك؟ قال: إذا ذَهَبَتْ علماؤكم، وكثُرَت قرَّاؤكم، وقلَّت فقهاؤكم، وكَثُرت أمراؤكم، وقلَّت أُمناؤكم، والتُمِسَت الدُّنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين»[1].

تحرَّيْنا النقوش، وأغفلنا النفوس، وبالَغْنا في العناية بزينة الجُدران، وأهملْنا الإنسان.

ما الحلُّ؟ ما العمل؟ ما الدواء؟

ليس لنا إلَّا العودة لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، في ضوء منهاج السلف الصالح.

ومِن نبع النبوَّة الرقراق العَذب؛ نروِّي ظمأنا بقول النبي ﷺ:

«إذا زخرفْتُم مساجدكم، وحلَّيْتُم مصاحفكم؛ فالدَّمار عليكم»[2].

نتـأمَّـل كيف كان مسجد النبي ﷺ؟ نتدبَّر بعض مواقف الصحابة

---

(١) رواه الدارمي (١/٦٤) بإسنادين أحدهما صحيح والآخر حسن، والحاكم (٤/٥١٤)، وغيرهما؛ كما في «قيام رمضان» لشيخنا الألباني حفظه الله.

(٢) سيأتي تخريجه في بداية البحث إن شاء الله.

رضي الله عنهم تجاه المظهرية الخاوية، ثم نعود إلى أمتنا؛ بروح جديدة، وفِكرٍ صافٍ، لا تشوبه الشوائب، نجتثُّ جذور المفاهيم الفاسدة، والأفكار المنحرفة.

أسأل الله سبحانه أن يكون في كتابي هٰذا؛ تحقيق المقاصد، وتلبية المطالب.

ولا يفوتني بفضل الله تعالى، أن أشكر كلَّ مَن ساهم بإخراج هٰذا الكتاب بصورة طيبة، وبكافة الجهود.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبَّل مني عملي، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها؛ إنَّه على كل شيء قدير.

○○○○○



المظهرية الجوفاء

* حديث «إذا زخرفتم مساجدكم . . .»:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا زخرفتم مساجدكم، وحلَّيتم مصاحفكم؛ فالدَّمار عليكم»(١).

---

(١) رواه الحكيم الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وحسَّنه شيخنا الألباني حفظه الله تعالى في «صحيح الجامع» برقم (٥٩٩)، وقال حفظه الله تعالى في «السلسلة الصحيحة» (١٣٥١):

«رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١ / ١٠٠ / ٢ ـ مخطوطة الظاهرية): أبو خالد الأحمر عن محمد بن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد مرفوعاً.

قلت: وهٰذا إسناد مرسل حسن.

وله شاهد موقوف، يرويه بكر بن سوادة عن أبي الدرداء؛ قال: (فذكره مع تقديم وتأخير). أخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (رقم ٧٩٧): أخبرنا يحيى بن أيوب عن عمرو بن الحارث عن بكر بن سوادة به.

قلت: وهٰذا إسناد رجاله ثقات رجال مسلم، ولكنِّي لا أدري إذا كان بكر بن سوادة سمع من أبي الدرداء أم لا، ولكنه شاهد لا بأس به للمرسل، وهو، وإن كان موقوفاً، فله حكم الرفع؛ لأنه لا يُقال من قِبل الرأي، لا سيَّما وقد رُوي عنه مرفوعاً، ذكره كذٰلك الحكيم الترمذي في «كتاب الأكياس والمغترِّين» (ص ٧٨ ـ مخطوطة الظاهرية)، وكذٰلك عزاه =

لَمَن الخطاب:

كلمة مرعبةٌ مخيفة... إنَّها الدَّمار... أو شيء آخر؟

لا، بل الدمار، ولمن؟ أللبهود؟ أم للنصارى؟ أم للمشركين؟

لا، ليس هٰؤلاء هم المرادين هنا، ولكنَّ المرادين هم المسلمون!
وهٰذا واضح بيِّن من خلال قوله عليه الصلاة والسلام: «... عليكم».

بل إنَّ الخطاب لأهل المساجد والمصاحف!!

واكرباه! واحزناه! هل آل الأمر بأصحاب المساجد والمصاحف أن يكونوا في دمار؟! أليس في المصاحف من النور والشفاء والرحمة ما يدفعُ عنهم ذٰلك الدَّمار؟! أوَليست المساجد بيوت الأتقياء؟! أوَليس مِن هٰذه البيوت، قد كان الإشعاع والنصر والسؤدد والمجْد؟!

فأين العلَّة؟

المسألة هيِّنة سهلة، هيَّا بنا نتأمل كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في لغة النبوَّة: «زخرفتم»، «حلَّيتم».

حال المسلمين اليوم:

بلى يا إخوتي! إنها الزخرفة... أجل إنَّها التحلية...

تعالَوْا بنا نسأل أنفسنا: هل زخرفْنا المساجد وحلَّيْنا المصاحف؟

= السيوطي في «الجامع» إلى الحكيم عنه؛ يعني: في «نوادر الأصول»، وذكر المناوي أنَّ إسناده ضعيف، والله أعلم».

ولأخي الفاضل علي حسن علي عبدالحميد حفظه الله رسالة نافعة في ذٰلك بعنوان: «بقية الماجد في تخريج أثر زخرفة المساجد».

الجـواب تشهـده الأعين، وليس الخبـر كالمعاينة، وهٰذا الأمر لا يحتاج إلى دليل:

وليْسَ يَصِـحُّ في الأذْهـانِ شَيْءٌ
إذا احْـتَـاجَ الـنَّـهـارُ إلـى دَليلِ

لقـد سيم المسلمـون الخسْف... لقـد رَكِبْنـا الهـوانُ وامتـطانـا الذلُّ... انظر إلى التذبيح والتقتيل والتشريد في أرجاء المعمورة، انظر إلى أعـداء الله كيف يتحكَّمـون بالمسلمين؛ يُذَبِّحون الأبناء، ويقَتِّلون الـشيوخ والأطفـال، وبعـد أن كانت الأرض تابعـة لحكم المسلمين وسلطانهم؛ أصبحت الأمـة ينهشها الاحتلال والاستعباد، تتداعى عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

أنَّى اتَّجَهْتَ إلى الإسلامِ في بَلَدٍ
تَجِـدْهُ كَالـطَّيْرِ مَقْصُـوصـاً جَناحاهُ

كيف كان المسلمون بالأمس؟

ارجع إلى الماضي العريق؛ لتعلم كيف كان امتداد ديار المسلمين يتغير يوماً بعد يوم؛ بفتوحات مشرقة، وانتصارات مشرِّفة.

ثمَّ اقرأ الصحف اليومية، وما إخالك تُسرُّ من خبر واحد عن الأمة الإسلامية!

لِمِثْـلِ هٰذا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ
إنْ كَانَ في القَلْبِ إسْـلامٌ وإيمانُ

كان المسلم يجوب البلاد من أدناها إلى أقصاها، لا يسأله سائل،

ولا يردُّه أحـد، الأرض أرض الله، وهـو عبـد الله، كل أرض حلَّ بهـا الإسلام؛ أُحِلَّ للمسلم أن يزورها، ويسكن فيها، ويجعلها دار إقامته.

متى دخـل على المسلمين هٰذه الاصطلاحات البالية: هيئة الأمم المتحدة، مجلس الأمن، الجمعية العمومية؟

إنَّ التمسح بقبور الأنبياء لا يجوز، فكيف التمسح بأعتاب مجلس الأمن؟!

إنَّ التوسل بالصالحين وأئمتهم حرام، فكيف التوسُّل بأئمة الضلال والكفر؟!

يا مجـلس الأمـن بل يا مُقْـلِقَ الأمنِ
مُذْ لَاحَ وَجْهُكَ لَمْ نَعْرِفْ سوى الوَهَنِ

إذن، فليس هناك إلا الدمار؛ نراه، نسمع به، نقرأ عنه.

يا أمَّة الإسلام! ما الذي حلَّ بك؛ وفيك المصحف العظيم والسنَّة المطهَّرة؟!

ما الذي أصابك يا خير أمة أخرجت للناس؟!

إنَّ من الدَّمار الذي عمَّ بنا؛ أنَّنا لم نعلم سبب الدَّمار!

كم نتباهى في زخرفة المساجد وتحلية المصاحف؟!

ويمضي الأمر هٰكذا... يتنافس فيه المتنافسون، ويتسابق المتسابقون!

وإذا ما خلا المسجد من التكلُّف والزخرفة؛ عُدَّ مسجداً حقيراً في

نظر الأكثرين.

وكأن المصاحف لا تحلو ـ عند أغلب الناس ـ إلا بالتحلية والتزيين، وهُم بذلك يظنُّون أنهم يُحسنون صُنعاً.

ماذا لو رأينا مسجداً متواضعاً، عارياً من الزينة التي ألبَسْناها أكثر المساجد، مكسوّاً بالتواضع، بناؤه لا يكلِّف عشر معشار ما تُكَلِّفه المساجد الأخرى؟! ما شعورنا نحوه؟! أننشد حوله القصائد التي تبكي الأطلال؟ أم نُعْرِض عنه؟ وأيّ الأمرين فعلْنا أخطأْنا.

فَقُلْتُ: هُمَا أَمْرانِ أَحْلاهُمَا مُرُّ

كيف كان مسجد النبي ﷺ؟

لا بُدَّ أن نتعرَّف على مسجد النبيِّ ﷺ... ألا يَسَعُنا ما وَسِعَه ووسِعَ أصحابه؟!

ممَّ كان سقفُ مسجده ﷺ؟

لقد كان من جريد النخل، وربما سجد ﷺ في طين وماء.

عن أبي سلمة رضي الله عنه قال: «انطلقْتُ إلى أبي سعيد الخُدري، فقلتُ: ألا تخرج بنا إلى النَّخل نتحدَّث؟

فخرج، فقال: قلتُ: حدِّثني ما سمعْت من النبي ﷺ في ليلة القدر.

قال: اعتكف رسول الله ﷺ عشْر الأوَل من رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل، فقال: إنَّ الذي تطلب أمامك؛ فاعتكف العشر الأوسط.

فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل، فقال: إنَّ الذي تطلب أمامك.

قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «مَن كان اعتكف مع النبي ﷺ فليرجع؛ فإني أُريتُ ليلة القدر، وإني نُسِّيتُها، وإنَّها في العشر الأواخر في وِتْر، وإني رأيتُ كأني أسجد في طين وماء».

وكان سقف المسجد جريدَ النَّخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قَزْعة، فأُمْطِرنا، فصلَّى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ وأرنبته[1]؛ تصديق رؤياه»[2].

وفي رواية لمسلم: «حتى سال سقفُ المسجد، وكان من جريد النَّخل، وأُقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله ﷺ يسجد في الماء والطين».

كان سقفه جريد النَّخل، وربما سال السقف حين تمطر، وكان يسجد في الماء والطين.

وكيف أمر النبي ﷺ أصحابه الكرام رضي الله عنهم أن يبنوا مسجده؟ ذلك ما يوضِّحه ﷺ بقوله لأصحابه رضي الله عنهم:

«ابنوه عريشاً كعريش موسى»؛ يعني: مسجد المدينة[3].

وكان ﷺ قادراً أن يأمرهم ببنائه قصراً مزخرفاً مزَوَّقاً، فلما ترك ذلك عليه الصلاة والسلام كان تركه سنَّة، تحمل الخير والبركة والنجاة والفوز،

---

(١) أي: طرف أنفه.

(٢) رواه البخاري؛ انظر: «فتح الباري» (باب: السجود على الأنف والسجود على الطين)، وروى مسلم نحوه في (كتاب الصيام / باب: فضل ليلة القدر).

(٣) حديث حسن لغيره، وانظر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٦١٦).

«وخير الهدي هدي محمد ﷺ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما أُمِرْتُ بتشييد المساجد».

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

«لَتُزَخْرِفُنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى»(١).

وعن أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مِنْ أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد»(٢).

وفي الحديث:

«لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»(٣).

وها نحن نرى التباهي والتفاخر والتنافس والتسابق في بناء المساجد؛ من حيث زينته، وزخرفته، وتحليته، وفي مظهره وجماله ونفقته.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ؛ قال:

---

(١) رواه أبو داود، وقال شيخنا في «المشكاة» (٧١٨):
«سنده صحيح، وقد أُعِلَّ بالإرسال، وهو مدفوع، كما حققته ثمة».
وانظر قول ابن عباس رضي الله عنهما في «الفتح» (باب: بنيان المسجد).

(٢) رواه أبو داود والنسائي والدارمي وابن ماجه، وقال شيخنا في «المشكاة» (٧١٩):
«أخرجه أبو داود من طريق أبي قلابة وقتادة عن أنس، وسائرهم عن أبي قلابة وحده، وهذا سند صحيح».

(٣) رواه أحمد في «مسنده»، وغيره، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٧٢٩٨).

«مَن بنى لله مسجداً، ولو كمِفْحص قطاة لبيضها؛ بنى الله له بيتاً في الجنَّة»[1].

وعن جابر رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن بنى لله مسجداً، كمِفْحص قطاة أو أصغر؛ بنى الله له بيتاً في الجنة»[2].

وأمرَ عمر رضي الله عنه ببناء المسجد، وقال:

«أكِنَّ[3] الناس من المطر، وإياكَ أن تحمِّرَ أو تصفِّرَ فتفتن الناس»[4].

وعن أنس رضي الله عنه؛ قال:

«يأتي على أمَّتي زمان يتباهَوْن بالمساجد، ثمَّ لا يعمرونها إلا قليلاً»[5].

ما الذي خرَّجه مسجد النبي ﷺ[6]؟

ماذا لو رأينا مسجد النبي ﷺ ماثلاً أمامنا كما قرأنا عنه؟! ما وزْن هٰذا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده»، وهو في «صحيح الجامع» برقم (٦٠٠٥).

(٢) رواه ابن ماجه، وهو في «صحيح الجامع» برقم (٦٠٠٤).

و(المفحص): حفرة تحفرها القطاة ـ وهي نوع من اليمام ـ في الأرض لتبيض وترقد فيها.

(٣) أي: اجعل المسجد على صفةٍ تصونهم من المطر.

(٤) عن «فتح الباري» (باب: بنيان المسجد) (١ / ٥٣٩).

(٥) قال الحافظ في «الفتح» (١ / ٥٣٩):

«... وهٰذا التعليق رويناه موصولاً في مسند أبي يعلى، وصحيح ابن خزيمة».

(٦) لأخي الفاضل محمد القيسي حفظه الله كتاب قيِّم بعنوان: «المساجد بين =

في قلوبنـا ونفـوسنـا؟ أليس هو المسجـد الذي خرَّج الرِّجال؟ أليس هو المسجد الذي خرَّج الفاتحين والأبطال؟ أليس هو المسجد الذي أنجب القادة؟ أوليس منه شعَّ النور وتحقَّق النصر؟

أجـل؛ إنـه مسجدٌ قدَّم لنا الدروس في الإيثار والمحبَّة والتضحية والبطولة والسعادة، قدَّم لنا وقدَّم، وقُلْ إنْ شئت: إن الأرض التي عليها نسكن؛ من أصلاب مَن عَمَروا هٰذا المسجد.

إنه مسجد عنايته تربية النفوس، صقلها، تهذيبها.

نعم؛ إنها العناية بالباطن... العناية بالْجوهر... العناية بالإنسان.

لا غرابـة إذن أن يكون الدَّمار على أمَّة تعتني بالجدران، وتتناسى الإنسان، تعتني بالزينة والنقوش، وتتعامى عن الأخلاق والسلوك، وإن كان الأمـر كذٰلـك؛ فهلمَّ بنـا نُلبِس الدواب أحسن الملابس، ونُسكِنُها خيار المساكن، فهل تخرج عن جنسها؟!

وهـا نحن الآن في مسـاجـد ضخمـة، نسجد على السجاد الوثير المزركش، والذي وُضع على البلاط الساحر الجميل، السقوف فيها قويَّة، لا يتسـرَّب منها نقطة ماء، فيها من وسائل التكييف والتبريد والتدفئة؛ ما يريح البـدن، ولا أحـدِّثـك عمـا تكلِّفه المساجد، فالأرقام كبيرة كثيرة، والمبالغ هائلة عظيمة، وأما عن الزخرفة والزينة؛ فلا أظنُّك تحتاج فيها إلى

= الاتِّبـاع والابتـداع»، ولأخي خير الـدين وانلي حفـظه الله كتـاب بعنـوان «المسجـد في الإسلام»، فارجع إليهما إن شئت.

كلام، وكـأنها أهمُّ ما في المساجد، أو كأنها الوسيلة الدعائية المعاصرة لجذْب الناس لها، وإقناعهم بها.

ولـو جئنـا نعدُّ الصفوف في صلاة الفجر ـ عفواً بل المصلين ـ ما احتاج الأمر إلى عناء أو مشقَّة.

ولو جئت تقارن النفوس التي تربَّت على الزخرفة والزينة والتَّنَعُّم في هٰذه المسـاجد، مع الجيل الذي كان يسجد في الماء والطين؛ لوجدْت العجب العجاب، لعلَّك لا تصدِّق أنه يعرف الإسلام؛ إنك ترى جيلاً يريد الجنَّة ـ بل الفردوس ـ دون أن تغبرَّ ملابسه، أو يُشاك بشوكة.

إنك تسمع بالإيثار، والوفاء، والتضحية، وتقرأ أحسن القصص عنه، لكنَّك تشتهي أن ترى عيناك من ذٰلك شيئاً، وهٰذا يُذَكِّرنا بقوله تعالى:

﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

فما أكثر أقوالنا وما أقلَّ أفعالنا[2]! وما أقلَّ أقوال الصحابة وما أكثر أفعالهم!

ما الذي فَعَلَه أولٰئك الذين صلَّوا تحت سقوف جريد النَّخل؟ وما هي الفتوحات التي حقَّقوها والبلدان التي وصلوها؟ وماذا فعل الذين صلَّوا في المسـاجـد المـزخـرفـة المزيَّنة؟ وإلى أيِّ مدى طارَدَهم المحتلُّ الغاشم والمستعمر الظالم؟!

---

(١) الصف: ٣.

(٢) وهٰذا لا يعني انعدام أهل الخير والإيثار والتضحية، فهنالك ـ والحمد لله ـ مَن يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، ولكن هٰؤلاء مع مجموع الأمة في العصر الحاضر قلَّة، فنسأل الله تعالى العافية.

كيف كان القرآن في عهد النبي ﷺ وأصحابه؟

كيف كان القرآن في عهد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم؟ ومتى جُمِعَ؟ وكيف كان حال المسلمين قبل أن يُجْمَعَ كهيئته اليوم؟ وكيف حالنا بعد أن جُمِعَ وزُيِّنَ وحُلِّي؟ أم أنَّنا أفلسْنا، فلم يبْق لنا إلا الاهتمام بالزخرفة والتَّحلية؟!

لو كان الشرع جميلاً في نفوسنا؛ ما احتَجْنا إلى تزيين الجُدران والأوراق، فهٰذا التزيين يدلُّ على افتقارنا إلى الجمال، فلا نطلبه إلا على الأشياء!

إن الزخرفة والتزيين والتحلية قد شَغَلَت قلوب الناس، فالنساء ـ مثلاً ـ يخرجن إلى الشوارع بألوان تتعدَّد، فالحمرةُ على الشفاه، والمساحيق البيضاء على الخدود، والظلال الخضراء على العيون، وظلت النفوس تتوق وتحنُّ إلى الألوان الباقية؛ فوجدوها في الثياب.

ولم يقِف الأمرُ عند هٰذا الحد، بل تعدَّت الزخرفة والتحلية إلى المساجد والمصاحف.

* *موقف عمر من المظهرية:*

نظنُّ أن عزَّتنا وسعادتنا بالنُّقوش والزِّينة، وننْسى قول النبي ﷺ:

«أيُّما أهل بيت من العرب والعجم، أراد الله بهم خيراً، أدخل عليهم الإسلام، ثم تقعُ الفتنُ كأنَّها الظُّلل»[1].

---

(١) رواه أحمد، والحاكم، وغيرهما، وانظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٥١). و(الظلل): جمع ظلَّة، والمراد كأنَّها الجبال والسُّحُبْ.

وروى الحاكم من طريق ابن شهاب؛ قال:

«خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة[1] وعمر على ناقة، فنزل عنها، وخلع خفَّيه، فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته، فخاض بها المخاضة.

فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هٰذا؟! تخلع خُفَّيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك!

فقال عمر: أَوْهِ[2]! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة؛ جعلتُه نكالاً[3] لأمَّة محمَّد ﷺ، إنَّا كنَّا أذلَّ قوم، فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزَّنا الله به، أذلَّنا الله».

وفي رواية: «يا أمير المؤمنين! تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هٰذه؟! فقال عمر: إنَّا قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام، فلن نبتغيَ العزَّ بغيره».

وقفةٌ مع قول أبي عبيدة رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هٰذا؟! تخلع خُفَّيك وتضعهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك...»،

---

(١) في «لسان العرب»: «الخوض: المشي في الماء، والموضع مخاضة: وهو ما جاز الناس فيها مشاة وركباناً».

(٢) كلمة يقولها الرجل عند الشكاية والتوجُّع، وبعضهم يفتح الواو مع التشديد، فيقول: «أوَّه». «النهاية».

(٣) أي: عِبرة.

«. . . تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هٰذه؟!».

ربمـا قال القائل: إنه قول كل واحد منا. . . إنه مطلب صحيح، موائم للعصر، ملائم للتقدُّم!

ولكن؛ ما موقف عمـر بن الخـطاب رضي الله عنه ـ وما أدراك ما عمـر؟! ـ. . . ذٰلك الرجل الذي فرَّت منه شياطين الإنس والجنِّ، ذٰلك الرجل العظيم، البطل، الفاتح، العادل، التقي، صاحب رسول الله ﷺ، ثاني خلفاء المسلمين، ذٰلكم الذي أعزَّ الله المسلمين بحياته، ثم نُكِبُوا بموته؛ فقد جاءت الفتن وفُتِحَت أبوابها بعد موته رضي الله عنه.

ماذا قال رضي الله عنه؟

«أوْهِ! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة؛ جعلتُه نكالاً لأمة محمد ﷺ، إنا كنَّا أذلَّ قومٍ، فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزَّنا الله به؛ أذلَّنا الله».

«كنَّا أذلَّ قوم». . . كان الكفر، وكان الشرك، كانت الأصنام، كان التوسل بغير الله، كانوا قبائل متفرقة يغزو بعضها بعضاً، وكأنك ترى الشرَّ حبيب قلوبهم، وبهجة نفوسهم.

قومٌ إذا الشـــرُّ أَبْـدَى ناجِـذَيْهِ لَهُم
طَارُوا إِلَـــيهِ زُرافَـــاتٍ ووُحْـــدانـــا
لا يَسْـأَلُـونَ أَخَـاهُمْ حِينَ يَنْـدُبُهُم
في النَّـائِبَـاتِ عَلى مَا قَالَ بُرْهَـانـا

وإذا لم يجدوا مَن يغزونه؛ فما العمل؟

وأَحْـيانـاً على بكـرٍ أَخِـينـا
إذا مَا لَمْ نَجِـدْ إلَّا أَخَـانَـا

كان القتل، وكان الوأْد، وكان الضَّعف والخور، وكانت أيامها دولتا الفرس والروم، وكأنَّ العرب لم يكونوا أمام الدولتين شيئاً مذكوراً.

لم يقل: كُنَّا أذلَّة، ولكنه قال رضي الله عنه: «إنَّا كنَّا أذلَّ قوم».

ما الانقلاب الذي حصل في حياة الأمة؟ كيف تبدلَّ الأمر غير الأمر؟ لقد أصبحوا سادة وقادة وأبطالاً.

أبـالـزخـرفـة والـزينة؟! أم بالنقوش والألوان؟! أم بحُسْنِ الملبس والمظهر؟! أم بكثرة المال والبنيان؟!

الجواب يسير غير عسير: «فأعزَّنا الله بالإسلام».

إنه الدين الحنيف، يُعِزُّ من اعتنقه، ويُذِلُّ مَن تركه... إنها أجيال طَعمت العـزَّة مِن تمسُّكها بالإسلام، رضيتْ بالله تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبيّاً، رَضِيَتِ بذلك القلوب، ونطقتْ بذلك الألسن، وعَمِلَتْ بمقتضى ذلك الجوارح... إنها أجيال لا كالأجيال.

عجبْتُ لمن يطلب المال والخبز من الله تعالى، ويطلب العزَّة من غيره!

﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾[1]؟!

﴿أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ﴾[2]؟

---

(١) بعض الآية ٦٠ من سورة النمل.

(٢) يوسف: ٣٩.

فَيا عَجَـبــاً كَيْفَ يُعْــصَـــى الإلَـ
ـهُ أَمْ كَيْفَ يَجْـحَــدُهُ الجَــاحِــدُ

ففــي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ
تَدُلُّ عَلى أَنَّــهُ واحِــدُ

وماذا لو رأينا في عصرنا الحاضر رجلاً يخلع خفَّيه، ويضعهما على عاتقـه، آخذاً بزمام الناقة، خائضاً مخاضة ماء؟!

ما مكانة هٰذا الرجل في القلوب؟ ما تصنيف عمله؟ لعلَّه يعمل في أحقر الأعمال؛ إنه ليس مثقَّفاً أو ذا شهادة.

هٰذا إذا ألقينا له البال...

ولكنَّ هٰذه المعاني والأفكار تمرُّ سريعاً في لحظات، فمَن هو حتى يُؤبَه له، أو يُلْتَفَتَ إليه؟!

إنَّ هٰذا الرجل حريٌّ إذا خطب ألا يُنْكَح، وإذا قال ألا يُسمع لقوله!

وماذا لو كان هٰذا الرجل عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟!

هل تتبدَّل الأقوال والمفاهيم والأفكار؟!

كيف لا وقد بُدِّلت مواقع الأرض في عهده؟!

كيف لا وقد تبدَّل في عصره عَفَن الأفكار والعقائد ونتنها؛ إلى عقيدة الإسلام ونور التوحيد؟!

ألسنا نسعى أن نكون على منهاج الخلفاء حتى ننجو؟ ذٰلك لأنهم كانوا على منهاج النبي ﷺ، ونبينا ﷺ ما جاء بشيء من عنده، ﴿وَمَا يَنْطِقُ

عَنِ الهَوَى . إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[1] إذن؛ فاتِّبـاع هٰذا السبيل هو اتِّباع لأوامر الله تعالى.

هل فاتنا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تولَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيراً﴾[2]؟

ومن هم المؤمنون؟

لقـد شهد الله تعالى للصحابة رضي الله عنهم بالإيمان، فمَن ذا الذي يشهد لسواهم في عصرنا الحاضر، فيعطينا منهاجاً نتَّبعه ونعمل به؟

*** الشخصية الإسلامية تؤثِّر ولا تتأثَّر:**

إنَّـه درس عظيم، نتعلَّمه من صاحب رسول الله ﷺ، درس الثِّقة بالنفس، وهو أساس في بناء الشخصية المسلمة.

إنَّ الإنسـان المسلم لا ينبغي أن يكـون كريشـة في فلاة؛ يقلِّبها المجتمع ظهراً لبطن، إن استحسن أمراً استحسنه معه، وإن استقذر أمراً استقذره معه.

إن المسلم الداعي الواعي لهو القائد الذي يقود الناس؛ يُعَلِّمُهم، ويربِّيهم، ويؤثِّر فيهم.

إنه يستقي الخُلُقَ من القرآن والسنَّة، فالحَسَن عنده ما حسَّنَه الشَّرع، والقبيح ما قبَّحَهُ الشرع.

إنَّهُ يؤثِّرُ ولا يتأثَّر من مفاهيم الجاهلية... إنه يقود للخير ولا يُقاد

---

(١) النجم: ٣ و٤.

(٢) النساء: ١١٥.

للشر. . . إنه المعلم والمربِّي والقائد.

﴿ومَن أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلى اللهِ وعَمِلَ صالِحاً وقالَ إنَّني مِن المُسْلِمينَ﴾[1].

بلى؛ إنّ أقواله أحسن الأقوال، وفعاله أحسن الأفعال، فلم التأثر إذاً من قولٍ أو نقدٍ؟ من أين استقوا هٰذه الانتقادات؟ وما ميزان العيوب والذنوب؟

* الفهم الصحيح للعزَّة:

إنَّ العـزَّة تنبـع من داخـل الإسلام لا من خارجه، فإذا ما سمِعْتَ شخصاً يأتيك بمفاهيم للعزَّة والتقدُّم، أو يعترض عليك بأفعالٍ؛ زعماً منه أنها لا تليق؛ فقل له: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقينَ﴾[2]، ثم لا تنس أن تتلو عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أليماً . الَّذينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤمِنينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فإنَّ العِزَّةَ للهِ جَميعاً﴾[3].

إن المنافقين أولياء الكافرين؛ يزعمون ويدَّعون أنَّ العزَّة تُبْتَغى من الكفـار. . . إنَّهم لم يبتغوها من الله تعالى؛ لضعف عقيدتهم، وخراب أفئـدتهم، فراحـوا إلى الكافرين يبتغونها منهم، وأتوا إلينا بمقوِّمات لها، وبمفـاهيم عجيبـة، تخـالف مفاهيم العزَّة التي يريدها الله تبارك وتعالى ويرضى عنها.

---

(١) فصِّلت: ٣٣.

(٢) البقرة: ١١١.

(٣) النساء: ١٣٨ و١٣٩.

* *موازين العزة عند غير المسلمين:*

أما يرَوْن أنَّ الملابس الأوروبية الآن، هي رمز التقدُّم والحضارة والمدنيَّة والفهم والتطوُّر والذكاء؟!

وكيف يرَوْنَ ربطة العنق؟

قالوا: لا يضعها إلا فهيم!

لقد استَوْردنا السيارات والطائرات والملابس... ومعها العزة المزعومة من الشرق والغرب... فماذا نفعل بقوله تعالى: **﴿فإنَّ العزَّةَ للهِ جَميعاً﴾**[1]؟

هؤلاء لا يؤمنون بالرسول ﷺ، ولا بأحاديثه، ولا بالموازين التي وَرَدَت بها، فمقوِّمات العزة عندهم نابعة من عقيدتهم وأفكارهم، فلماذا لا يقول كلُّ واحد منا لهم: **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ ولِيَ دِينٌ﴾**[2]؟

إنَّ الله تعالى يفتح باب العزة فيقول: **﴿مَنْ كَانَ يُريدُ العِزَّةَ فللهِ العِزَّةُ جَميعاً﴾**، ونحن نلجأ إلى غيره سبحانه!!

هؤلاء يعدون الرسول ﷺ والمؤمنين أذلَّة، أصدروا قواعد في العزَّة، وأصَّلوا فيها أصولاً، ولحقوا بعبدالله بن أُبي بن سَلول رئيس المنافقين لمَّا قال: **﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المَدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْها الأذَلَّ﴾**[3]، وربنا سبحانه وتعالى يقول القول الفصل: **﴿ولله العِزَّةُ ولِرَسولِهِ ولِلْمُؤمِنينَ**

(١) البقرة: ١١١.

(٢) الكافرون: ٦.

(٣) انظر: تفسير سورة المنافقين، آية ٨، من «تفسير ابن كثير».

وَلٰكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَعْلَمونَ﴾[1].

فلنستمدَّ العزة إذن من الله تعالى، ومن سنَّة الرسول ﷺ، ولْنَبْحَثْ عنها عند المؤمنين، فإن كنا نؤمن بالله تعالى؛ فلماذا لا نسلك سبيل التصديق والإيمان؟! أوَ ليس هو سبحانه القائل: ﴿وَلٰكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَعْلَمونَ﴾؟! لماذا نسلك سبيل الذين لا يعلمون؟! لا يعلمون حقيقة النبي ﷺ... لا يعلمون حقيقة الإيمان والمؤمنين... يسمُّوننا أذلة... ومع ذٰلك نرضى عنهم، ونحبُّهم، ونأخذ عنهم موازين العزة الزائفة!!

أليست الفتاة العفيفة البِكر في ميزان هٰؤلاء رجعية متأخرة؟! كيف تأخَّر فضُّ بكارتها لولا أنها متوحِّشة؟!

ما ميزان الأخلاق عند هٰؤلاء؟ ما شعورهم تجاه مَن خالفهم في اللباس؟ إنَّه مُعَقَّد، حتى بلغ الأمر بنا، أننا لا نجرؤ على ارتداء الملابس العربية المتَّفقة مع سمات الزيِّ الإسلامي!

*** *عوداً إلى قول عمر رضي الله عنه: «لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة؛* جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ»:**

لقد عفا عمر رضي الله عنه عن أبي عبيدة رضي الله عنه لما لَه عنده من مقام وقدر، وهل يكون ذٰلك العقاب لغير ذنبٍ عظيم؛ أن يُجْعَلَ المرءُ نكالاً لأمَّة محمد ﷺ؟

ما الذنب الذي فعله؟...

إن عمر رضي الله عنه يَرى أن ذٰلك الفكر سامٌّ، لو سرى في حياة

---

(١) المنافقون: ٨.

الأمَّة لأودى بحياتها. . . إنَّه يتوعَّد أنْ يجعلَ مَن يقول هٰذا ـ أو مثله ـ نكالاً لأمَّة محمد ﷺ؛ خشية أن يأتي بالنَّكال للأمَّة.

وهٰكذا كانتِ العِزَّةُ ودام المجد في عهد خليفة راشد عظيم، كان يسير على هٰذه السنَّة العظيمة، كان يزِن ما يسمع من الكلمات، ويُصوِّب الأفكار. . . كيف لا وقد قال فيه عليه السلام: «لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر ابن الخطاب»(١)!

إنه الإلهام الذي ذكَره النبي ﷺ في الحديث: «قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أُناس محدَّثون، فإن يكُ في أمَّتي أحدٌ منهم؛ فهو عمر بن الخطاب»(٢).

ها نحن الآن نغرق في أقوال وكلمات وأصول وقواعد ومفاهيم، تربو بكثير عن هٰذه العبارة في معانيها، بل لا وجه للمقارنة، تلك التي أوحتها شياطين الإنس والجنِّ من شتَّى البقاع!

نغرق في الأقوال، وليتنا في هٰذا الموطن ممَّن يقولون ما لا يفعلون.

**** المظهرية الجوفاء لا تخدم مصلحة الأمة:***

قالها أبو عبيدة رضي الله عنه، وما قالها عن هوى أو حظِّ نفس؛ إنه أراد مصلحة الأمَّة. . . إنَّه رجل قائد، يريد أن يكون الإنسان المسلم ـ ولا سيما الخليفة ـ عزيزاً مكرماً أمام البشرية، يريد أن يكون الخليفة مهيب

---

(١) رواه أحمد في «مسنده»، والترمذي، وغيرهما، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٥١٦٠).

(٢) رواه البخاري، ومسلم، وأحمد في «مسنده»، وغيرهم.
وفي «صحيح مسلم»: «قال ابن وهب: تفسير محدّثون: مُلْهمون».

الجانب، مصون الشخصية، ولذلك قال لعمر رضي الله عنه:

«تلقاك الجنود وبطارقة الشام؛ وأنت على حالك هذه!».

«ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك»!

كيف تلقاه الجنود وهو بذلك الحال؟! كيف تلقاه بطارقة الشام وهو في ذلك المنظر؟! كيف يستشرفُه أهل البلد وهو على ذلك الوضع؟! لا بدَّ أن يظهر عمر رضي الله عنه عزيزاً قويّاً كريماً عظيماً أمام الناس.

إنه لم يُرِدْ إلا رضوان الله تعالى. . . إنَّه لم ينظر إلا لمصلحة الأمة، وصيانة شخصية عمر جزء منها.

ولكن؛ هل رجَّح أمير المؤمنين رضي الله عنه هذه المصلحة؟ هل تنازل عمَّا رآه حقّاً؟ بل إنَّه حول المصلحة يُدندن، إنه ما قال الذي قاله؛ إلا لحياة الأمة وسعادتها ومجدها، وإلَّا؛ فبأيِّ لسان كان يتحدَّث عمر رضي الله عنه؟ بأي ضمير تكلَّم؟ أبضمير المفرد أم الجمع؟ فلنتدبَّر المقولَة ونتأمَّل العبارة:

«إنَّا كنَّا أذلَّ قوم، فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزَّنا الله به؛ أذلَّنا الله».

علامَ تدل كلمة (إنَّا) وجارتها بالجنب (كنَّا)، ثم كلمة (قوم)، أتدل هذه على مفرد؟ علام تدل كلمة (نطلب) و (أعزَّنا)، و (أذلَّنا)؟ . . .

بلى؛ إنه ينظر من منظار مصلحة الأمَّة، ولو كان ينظر لمصلحته الخاصة؛ لَشَكَر أبا عبيدة رضي الله عنه، ولَلَبِسَ أحسن الثياب، وطَعِم أحسن الطعام، وقُضِي الأمر.

تأمُّلاً في مواقف هٰؤلاء الرجال؛ كم يُؤثِّرون في الرَّعيَّة؟ كم يُلاقون من الأتباع والأحباب؟ ما أجمل أن يأتي التَّطبيق من هٰذا الصنف ممَّن يكونون في مقام القدوة؛ من ذوي المناصب والولاية والجاه والسلطان!

وهٰكذا مضى الصَّادقون من ذٰلك الجيل الفريد على نفس السبيل، مهما كانت مناصبهم.

عن عبد الله بن شقيق؛ قال:

«كان رجل من أصحاب النبي ﷺ عاملاً بمصر، فأتاه رجل من أصحابه، وهو شَعِثُ[1] الرأس مُشْعان[2]؛ قال: ما لي أراك مشعاناً وأنت أمير؟! قال: كان ينهانا عن الإرفاه. قلنا: ما الإرفاه؟ قال: الترجُّل كل يوم»[3].

وله طريق أخرى عن يزيد بن هارون عن الجريري عن عبد الله بن بريدة:

«أنَّ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رَحَلَ إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر، فقَدِمَ عليه وهو يمدُّ ناقة له، فقال: إنِّي لم آتك زائراً، وإنَّما أتيتك لحديثٍ بلَغني عن رسول الله ﷺ رَجَوْتُ أن يكون عندك فيه عِلم. فرآه شَعِثاً، فقال: ما لي أراك شَعِثاً وأنت أمير البلد؟ قال: إنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) أي: متفرِّق الشعر.

(٢) هو منتفش الشعر، ثائر الرأس.

(٣) رواه النسائي، وقال شيخنا في «السلسلة الصحيحة» (٢ / ٥٠٢):

«وهٰذا إسنادٌ صحيح، رجاله رجال الصحيح، غير إسماعيل بن مسعود، وهو أبو مسعود الجحدري، وهو ثقة».

كان ينهانا عن كثير من الإرفاه[1]. ورآه حافياً، فقال: ما لي أراك حافياً؟ قال: إنَّ رسول الله ﷺ أمرَنا أن نحتفيَ أحياناً»[2].

غرابةٌ شديدة تسارع إلى الذهن؛ أن يُرى الأميرُ ثائر الرأس، شعثاً، مشعاناً، حافياً!

ولكن الغرابة تزول؛ إذا علِمْنا أن هٰذا حالٌ من أحوال المسلم، فهو يحتفي وينتعل، ويمتشط ويَدَع ذٰلك، إنه يشعر بقوَّة الشخصية والثقة، يُحسُّ بأنَّ هٰذه المظهريات لا تتحكَّم به أو تأسِر شخصيَّته، بل إنَّه هو الذي يحكمها ويأسرها، أما الموازين المعاصرة؛ فقد جعلت هٰذه الأشياء أساساً في الحكم على شخصيَّة الإنسان وقيمته، ويا لها من مقاييس!

ماذا لو خرج العلاَّمة حافياً بين الناس؟ أينقص عِلمه؟! أم يقلُّ قدرُه؟!

وماذا لو انتعل الغبيُّ الجاهل أحسن النِّعال؟ أيصبح عالماً فقيهاً نابغة؟!

ماذا لو لبس المعتوه أحسن الثياب وأجملها؟ أيغدو ذا لب فهيم؟!

---

(١) المراد هنا: كثرة التدهُّن والترجُّل والتنعُّم، بدليل الرواية السابقة، وأصل المعنى: التوسع في المشرب والمطعم ولين العيش.

(٢) أخرجه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وقال شيخنا: «صحيح على شرط الشيخين». وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٥٠٢).

وتابع يزيدَ بنَ هارون حمادُ بن سلمة عند البيهقي في «الشعب»، وروايته عنه قبل الاختلاط، فصحَّ الحديث. والحمد لله.

وقد أودع هٰذه الفائدة شيخُنا حفظه الله تعالى في الطبعة الجديدة، يسر الله إتمامها.

لقـد اكتفى النـاس الآن بارتـداء الملابس الحسنة، والامتشاطات الساحرة، ووَضْع العطور المنعشة، ثم إنَّهم إذا خَلَوا بمحارم الله تعالى؛ انتهكوها.

هٰؤلاء عندنا أفاضل الناس! ما أظرفَهُم ومـا أحسنَهُم! ولربَّما لم يكن في قلب أحدهم مثقال ذرَّة من خردل من إيمان!!

ما لكم كيف تحكمون؟!

*** لا بدَّ من الثقة بالنفس:**

لا بدَّ من الثِّقـة بالنفس، لا بدَّ من بنـاء الشخصية الإسلامية بناءً شامخاً، على أساس ثابت قويٍّ، لا تزعزعه العواصف، ولا تخدشه الصواعق.

وإن كان أهل الضلالة والعمى قد وثقوا بأنفسهم، ولم يستحيوا مما ينبغي الاستحياء منه؛ فما ظنُّنا؟

إنَّهُم لم يستحيوا من التشبُّه بالنساء، ولا من المجاهرة بالزنى، ولا من إقرار اللواط في قراراتهم وقوانينهم، فأي قُبح أعظم من هٰذا؟! ألسنا أوْلى منهم بهٰذه الثِّقة ونحن على الحقِّ؟!

*** المرواحة في التنعُّم:**

إنَّ اللباس الحسن والترجُّل والتطيُّب من الأمور المشروعة، ومن زينة الحياة الـدُّنيا، متَّع الله بها عباده، على ألَّا تكون هي الأساس والأصل والميزان والمقياس؛ في الحكم على الناس.

ولنحذر أن تقودنا هٰذه المباحات؛ إلى احتقار مَن لم ينعم بها، أو

ابتُلِي بحرمانها، أو ترك شيئاً منها تواضعاً لله سبحانه.

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال:

«لا يَدْخُلُ الجَنَّة مِن كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبْر».

قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة.

قال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْر: بَطَر الحق[1]، وغَمْطُ النَّاس[2]»[3].

لقد خشي الصحابة ـ لشفافية قلوبهم ـ أن يكون التجمُّل في اللباس من الكِبْر، فبيَّن رسول الله ﷺ أن هٰذا مِنَ الجمال الذي يحبُّه الله تعالى، ثمَّ بيَّن لهم الكِبْر وحقيقته، وعرَّفه لهم ليجتنبوه، فالكِبْر هو ردُّ الحق ودفعه، واحتقار الناس وازدراؤهم.

إنَّـهُ لَيُخْشى على مَن داوم على الترجُّل والامتشاط والتنعُّم وارتداء الملابس المكويَّة والأنيقة؛ أن يحتقر ويسخر ممَّن ترَك شيئاً منها.

فمن المنـاظـر المـرفـوضة في مجتمعنا، أن يُرى المرءُ بثوب غير مكويٍّ، أو شعر غير مُرَجَّل، بل إنَّ مثل هٰذه الأمور تثير عندهم السخرية والاستهزاء... وهٰذا هو الكِبْر الذي حذَّر منه رسول الله ﷺ.

لقد بيَّن لنا رسول الله ﷺ ثوابَ مَن يترك اللباس تواضعاً لله تعالى،

---

(١) أي: دفع الحقّ.

(٢) احتقارهم.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» (كتاب الإيمان / باب: تحريم الكبر وبيانه)، ورواه جمع من الأئمة من طريق عبدالله بن سلام رضي الله عنه.

مع القدرة عليه، في الحديث الذي يرويه عنه معاذ بن أنس رضي الله عنه، إذ يقول فيه ﷺ:

«مَن تَرَكَ اللباسَ تواضعاً لله وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيِّرَه من أيِّ حلل الإيمان شاء يلبسها»(١).

فالمراوحة بين التنعُّم والترك، في اللباس ونحوه، تجمع بين فضيلتين: الإحساس بنعم الله سبحانه ووجوب شُكْره، وتحقيق التواضع وعدم السخرية من الناس.

*** *وصية رسول الله ﷺ بالمساكين:***

بل إنَّ اللقاء بالمساكين والفقراء، من الوسائل الطيبة، التي تحقِّق التواضع، وتحطِّم موازين المادِّيَّة والمظهرية الجوفاء، ونحن نرى هٰذا في وصية رسول الله ﷺ لأبي ذرٍّ رضي الله عنه، إذ يقول:

«أوْصاني خَليلي بسبعٍ: بحُبِّ المساكين، وأن أدنوَ منهم، وأن أنظرَ إلى مَن هو أسفلُ مني، ولا أنظُرَ إلى مَن هو فوقي، وأن أصِلَ رَحِمي وإنْ جفاني، وأن أُكْثِرَ مِن قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وأن أتكلَّم بمرِّ الحق، وأن لا تأخُذَني بالله لومة لائم، وأن لا أسأل الناس شيئاً»(٢).

لقد أوصى الرسول ﷺ بسبعٍ، تحتاج كلُّها إلى مجاهدات نفسٍ عظيمةٍ، فقد أوصى عليه السلام بالقناعة والزهد في الدُّنيا، وقول الحق والشّجاعة وعدم المداهنة والمجاملة، وكفِّ الطلب وعدم السؤال، وصلة

---

(١) رواه الترمذي، وغيره، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٦٠٢١).

(٢) عن «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٨٠٥).

الرحم وإن بادر بالجفاء والقطيعة، وتصحيح العقيدة واللسان، وعدم الحسد.

بَيْدَ أن النبي ﷺ بدأ وصيته بحبِّ المساكين، والدنوِّ منهم، وهو ليس بالأمـر السهـل؛ لأنَّ تنفيذه وإمضاءه يحتاج إلى تطهير القلوب من الكِبْر والعُجب؛ كما أنَّه يتطلَّب كثرة الزيارات، وإنَّه ليسيرٌ على مَن يسَّره الله له، عسيرٌ لما سوى ذلك؛ فإنَّ زيارة المساكين لا ترتبط بمصلحة ماديَّة، أو نفْعٍ عاجل.

فلا تنسَ ـ يرحمك الله ـ أن تدعوَ بدعاء النبي ﷺ: «اللهُمَّ أحْيِني مسكيناً، وأمِتْني مسكيناً، واحْشُرْني في زمرة المساكين»[1].

* الضعفاء والفقراء هم أهل الجنة:

لقد عظمت المظاهر في القلوب، وضَعُف إقبال القلوب على الله سبحانه وتعالى، فها نحنُ نعظِّمُ المادة والشهوات وأصحاب الأموال والجاه تعـظيمـاً شديداً؛ ربَّمـا فاق حبَّنا لأصحاب التديُّن، وإنَّك ترى حبَّ مَن يحمـل لقب (الـدكتور) يفوق حبَّ مَن لا يحمله، وإن تقدَّم غنيٌّ وفقير للزَّواج؛ قُدِّم الغني وإن قلَّ التزامه بدينه، وأُغْفِلَ الفقير الذي يُرضى عن دينه وخُلُقه.

إن شريعة الله سبحانه تعتني بتربية النفوس وتزكيتها عناية عظيمة، وإنَّنا لننسى أو نتناسى أو نجهل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿واصْبِرْ نَفْسَكَ

---

(١) من «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٣٠٨)، ولأخي علي حسن عبدالحميد حفظه الله جزء خاص في تخريجه.

مَعَ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَداةِ والعَشِيِّ يُريدُونَ وَجْهَهُ ولاَ تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُريدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيا ولاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَواهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[1].

إنها دعوةٌ لجهاد النفس، دعوةٌ للصَّبر ورباط القلب مع الصالحين والأتقياء، ولـو كانـوا فقـراء ضعفـاء مساكين، ذلك لأنهم يريدون وجهه ـ سبحـانه ـ وإنَّ الله تعالى ينهى عن تجاوز العيون والأنظار إلى سواهم؛ ابتغاء زينة الحياة الدُّنيا.

حقّاً؛ أن الأمر يحتاج إلى صبر، ويفتقر إلى ثبات.

وهل غاب عن قلوبنا أن هؤلاء الضعفاء الفقراء هم أهل الجنة؟!

ذلك ما يرويه حارثة بن وهب رضي الله عنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«ألا أُخْبرُكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف[2] مُتضعَّف[3] لو أقسم على الله لأبرَّه، ألا أُخبركم بأهل النار؟ كلُّ عُتُلٍّ[4] جَوَّاظ[5] مُستكْبر»[6].

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) ضعيف: ذو نفس ضعيفة؛ تواضعاً وضعف حال في دنياه.

(٣) أي: يستضعفه الناس ويحتقرونه.

(٤) جاء في «لسان العرب»:

«العُتُلّ: الشديد الجافي والفظّ الغليظ من الناس، والعتلّ: الشديد، وقيل: الأكول المَنوع، وقيل: الشديد من الرجال والدواب».

(٥) هو الجَموع المَنوع، وقيل: الضخم المختال، وقيل غير ذلك.

(٦) متفق عليه.

* هٰذا خير من ملء الأرض من مثل هٰذا :

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه قال:

«مرَّ رجل على رسول الله ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هٰذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس، هٰذا ـ والله ـ حريٌّ إن خطب أن يُنكَح، وإنْ شَفع أن يُشفَّع. قال: فسكت رسول الله ﷺ. ثم مرَّ رجل، فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك في هٰذا؟ فقال: يا رسول الله! هٰذا رجل من فقراء المسلمين، هٰذا حريٌّ إن خطب أن لا يُنْكَح، وإنْ شفع أن لا يُشَفَّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: هٰذا خير من ملءِ الأرض مِن مثل هٰذا»[1].

هٰذا هو ميزان المظهرية في كل عصر ومصر، يُفْتَح البابُ على مصراعيه لكل غنيٍّ ثريٍّ، أو ذي سلطان، أو جاه، أو منصب[2]؛ للنكاح، والاستماع، والاحترام، وتوصد الأبواب أمام الفقراء؛ قولاً، ونكاحاً، واستماعاً، واحتراماً.

يا لسحر المال واللباس والمظهرية! كم قتَلَ وقَتَلَ! ولكنَّه لم يدفع الدِّية، ولم يؤخذ الثأر منه.

عجباً عجباً! لماذا يُقدَّم هٰؤلاء في القولِ والنِّكاح والتصدُّر؟ آلمال قدَّمهم؟ فلا داعي إذن أن نعلِّم أبناءنا ونربيهم، حسبُنا أن نصبَّ عليهم

---

(١) عن «فتح الباري» (كتاب الرقاق / باب: فضل الفقر) مجلد (١١).

(٢) لا يعني هٰذا أنني أغفل دور الأغنياء الشاكرين الأتقياء، فهٰؤلاء يقدِّمون للمجتمع الإسلامي ما يعجز عن تقديمه الفقراء المخلصون، واقرأ تحت عنوان: (أغنياء لم تخدعهم المظهرية) (ص ٤٥) من هٰذا الكتاب.

المال، وندلَّهم على طرق اكتسابه! أم اللباس صدَّرهم؟ فلا حاجة إذن أن نسلك أساليب الفضيلة والأخلاق، فلنستزد من مصانع اللباس والأقمشة!

لقد أراد رسول الله ﷺ أن يُغيِّر المفاهيم، ويُصحِّحَ الأفكار، فبيَّن أنَّ ذٰلك الرجل، الذي لا يُلتَفَتُ إليه، ولا يُسمَع لقوله؛ خيرٌ من ملءِ الأرض من مثل ذٰلك الذي لَفَت الأنظار، وجَذَب الأبصار.

إنَّ الدَّمار ليحيط بالأمَّة، التي لا تعرف لِمَن تسمع وتُنْصِت، ولا تعلم مَن تُزوِّج ممَّن تأبى.

إن الهلاك ليحيق بالمجتمع، الذي يستمع لمن لا يُحسن القول، ويُعرِض عن أهله وأصحابه.

إنَّها بشائر نهاية المجتمع الذي لا يُنزل الرجال منازلهم.

«هٰذا خيرٌ من ملءِ الأرض من مثل هٰذا». . .

كلمات النبوَّة في حروف من نور، تُبَدِّد الظلمات، وتحطِّم الموازين الفاسدة.

وهٰكـذا؛ لو أنَّ الله سبحانه قدَّر أن تُملأ الأرض، من مثل هٰذا الغني المحبوب المرغوب المحسود؛ لما كان ذٰلك يعدل ذٰلك الفقير الضعيف.

فلتردِّد قلوبُنا بكلِّ ثقة واطمئنان قول رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكُم وأموالِكُم، ولٰكِنْ ينظُرُ إلى قلوبِكُم وأعمالكم»[1].

---

(١) عن «صحيح مسلم» (كتاب البر والصلة والآداب / باب: تحريم ظلم المسلم).

فالعبرة كل العبرة بصلاح القلوب والأعمال، لا بالصور والأموال، ولا بالمظاهر والشكليَّات، فالله تعالى هو الذي خَلَقَ صُوَرَنا، وهو سبحانَه الذي رَزَقَنا، ولكنَّه عزَّ وجلَّ لا ينظر إلى هٰذا ولا إلى ذاك.

فما بالُنا نظُرُ إلى غير ما ينظرُ له ربنا سبحانه وتعالى؟! ما بال الأعين تنظر للصُّور وتعمى عن العمل؟! ما لهٰذه الأنفس تتطلَّع للمظاهر وتغفل عن السلوك المستقيم؟!

وها نحن نجني ما نجنيه من الكروب والضيق والبلاء لسوء النظر والتطلُّع، فنسأل الله العفو والعافية والهدى والسَّداد.

*** نصر الأمة مرتبط بالضعفاء:**

إنها دروس وعِبَرٌ، نتعلَّمها من هٰذا الحديث... إنها قصَّة تتكرَّر...

كم نعظِّم ونبجِّل مِن مثل ذٰلك الرجل الشريف، ونستصغر مِن مثل ذٰلك الضعيف!

كم نُنْكِحُ بناتِنا لذوي الشهادات، ونترك أصحاب الصلوات!

كم نزوِّجْهُنَّ مِن أصحاب المناصب والسلطان، ونَذَرُ رجال التقوى والإيمان!

كم يشفع عندنا أصحاب الأموال، ونرفض شفاعة الفقراء.

أفلا نتذكَّر قول رسول الله ﷺ: «إنَّما ينصُرُ الله هٰذه الأمَّة بضعيفها؛ بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم»(١)؟

---

(١) رواه النسائي عن سعد رضي الله عنه، وهو من «صحيح النسائي» (٢٩٧٨).

نعم؛ إنَّ نصـر الأمـة مرتبط بالضعفـاء والمسـاكين؛ بدعـوتهم، وصلواتهم، وإخلاصهم. وماذا ـ بربِّكم ـ يقابل النَّصر إلا الهزيمة؟

وهـل جرَّ علينـا ما نحن فيه من الهـزائم والـويلات والكـوارث والمصائب؛ إلا غياب تعظيم دعوة وصلاة وإخلاص الضعفاء؟

جديرٌ بنا أن نزوِّج بناتنا لهٰؤلاء، أولى بنا أن نسمَع كلامَهم، ونقبلَ شفاعتهم.

سبحان ربِّنا كيف تبدَّلت الموازين غير الموازين، والأفكار غير الأفكار؟!

لقـد غدا صبُّ الاهتمـام على ذوي السلطان والجـاه والمـال والمنـاصب؛ طريقنـا القـويم إلى النصـر! إنه السبيل إلى قيام المجتمع الإسـلامي ـ زعموا ـ! وهٰؤلاء الفقراء والضعفاء والمساكين نضعهم على الـرفـوف، ومنَّـا مَن يسـوِّغ هٰذا، فيقـول: هٰؤلاء قد اطمأننا على حُسن إسلامهم، فنريد الاهتمام بمن لم يحسُن إسلامهم!! ثم يهملون إخوانهم الضعفاء بعد هٰذا

* ***ترى الرجل النحيف فتزدريه:***

وفي هٰذا المقام؛ يسرُّني أن أُورد قصيدة الشاعر المخضرم عباس بن مرداس، إذ يقول:

تَرَى الـرَّجُـلَ الـنَّحِيفَ فَتَـزْدَرِيه
وفـي أثـوابِـهِ أَسَـدٌ مزير[1]

---

(١) العاقل الحازم.

ويُعْـجِبُـكَ الـطَّرِيرُ[1] فَتَبْـتَلِيهِ
فَيُخْلِفُ ظَنَّـكَ الـرَّجُـلُ الطَّرِيْرُ

فَمَـا عِظَمُ الـرِّجَـالِ لَهُمْ بِفَخْرٍ
ولٰـكِـنْ فَخْـرُهُـمْ كَرَمٌ وخـيرُ

بُغَـاثُ[2] الـطَّيْرِ أَكْثَـرُهـا فِرَاخـاً
وأُمُّ الـصَّـقْـرِ مِقْـلاتٌ[3] نَزُورُ[4]

ضِعَـافُ الـطَّيْرِ أَطْـوَلُهـا جُسـومـاً
ولَـمْ تَطُلِ الـبُـزاةُ ولا الـصُّـقُـورُ

لَقَـدْ عَظُمَ الـبَـعِـيرُ بغَـيْرِ لُبٍّ
فَلَمْ يَسْـتَـغْـنِ بالـعِـظَمِ الـبَـعِيْرُ

يُصَـرِّفُـهُ الـصَّـغِيْرُ بكُـلِّ وَجْـهٍ
ويَحْبِسُهُ عَلى الخَسْفِ[5] الجَرِيرُ[6]

وتَـضْـرِبُـهُ الـوَلِيْدَةُ بالهَـرَاوى[7]
فَلا غِيَرٌ لَدَيْهِ ولاَ نَكِـيرُ

فإِنْ أَكُ في شِرارِكُـمُ قَليلاً
فإنِّـي في خِيارِكُـمُ كَثـيرُ

---

(١) ذو المنظر والرُّواء والهيئة الحسنة.

(٢) ما لا يصيد منه.

(٣) التي لا يعيش لها ولد، أو التي تضع واحداً ثم لا تحمل.

(٤) من النَّزر، وهو القليل.

(٥) الذل.

(٦) الحبل.

(٧) جمع هراوة، وهي العصا.

* *رضى الله تعالى لرضى المتَّقين وغضبه لغضبهم:*

سبحان الله! كيف غفِلنا عن قوله ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه»(١)!

كم قَرُب هٰذا من الله تعالى، ولٰكنَّه بعيد من النَّاس، طريد، مدفوع بالأبواب.

لعلَّ الأمر يبلغ بك أن تنال غضب الله تعالى، إن أغضَبْتَ شخصاً لم تُلْقِ له بالاً، وهو من عباد الله المتَّقين!

عن عائذ بن عمرو رضي الله عنه: «أنَّ أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم في نفر، فقالوا: والله ما أخَذَت سيوف الله من عُنُق عدوِّ الله مأخذها(٢). قال: فقال أبو بكر: أتقولون هٰذا لشيخ قريش وسيِّدهم؟ فأتى النبيَّ ﷺ، فأخبره، فقال:

«يا أبا بكر! لعلَّكَ أغضبْتَهُم، لئن كنتَ أغضبتَهُم؛ لقد أغضَبْتَ ربَّكَ».

فأتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوتاه! أغضبتُكم؟ قالوا: لا؛ يغفرُ اللهُ لك يا أخيّ»(٣).

لقد عظَّمَ الله مِن شأن عباده المؤمنين المتَّقين، إنه ليرضى سبحانه

---

(١) رواه أحمد في «مسنده»، ومسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه (كتاب البر والصلة والأدب / باب: فضل الضعفاء والخاملين).

(٢) وكان كافراً في الهدنة، بعد صلح الحديبية.

(٣) عن «صحيح مسلم» (٢٥٠٤) (باب: من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم / كتاب فضائل الصحابة).

لرضاهم، ويغضب لغضبهم، ذلك لأنهم يمشون على نور من الله تعالى، وهؤلاء ربَّما يرتدون الملابس الزهيدة، إن غابوا لم يُسأل عنهم، وإن حضروا لم يُؤبه لحُضورِهم.

تأمل ـ رحمك الله ـ كيف كان يوجِّه رسول الله ﷺ الأمَّة؛ مِن خلال خليفة المسلمين الراشد الأول، فيقول له: «يا أبا بكر! لعلك أغضبتهم»، لقد كان يخشى عليه السلام غضب أصحابه رضي الله عنهم، وإنَّ غضبهم ليغضبه ويحزنه ويؤلمه.

وهكذا ينبغي لكل مسلم؛ أن يراعي مشاعر إخوانه، فيخشى غضبهم، ويسعى لكسب رضاهم ووِدِّهم، في ظلِّ مرضاة الله عزَّ وجلَّ.

إنَّه لا سبيل لمرضاة الله تعالى بتجاهل أحاسيس ومشاعر المؤمنين الطائعين.

إنَّ ادِّعاء حبِّ الله تعالى، والحرص على رضاه، دَعاوى لا تُصَدَّق إلا باتِّباع الكتاب والسنَّة، وحبِّ الطائعين المؤمنين.

فاحذر إذن أن تُغْضِبَ إخوانك المتَّقين، فيمسَّك غضب الله تعالى.

زِنْ قولك وفعلك وسلوكك معهم، وحذارِ حذارِ من الزيغ والضلال:

* نظرات في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وتَوَلَّى...﴾:

قال الله تعالى:

﴿عَبَسَ وتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى . ومَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . ومَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى .

وأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعَى . وهُوَ يَخْشَى . فأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى . كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[1] .

عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت:

«أُنزل ﴿عَبَسَ وتَوَلَّى﴾ في ابن أمِّ مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ، فجعل يقول: يا رسول الله! أرشِدْني. وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرِض عنه ويُقْبِل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا؛ ففي هٰذا أُنزل»[2].

لعلَّ الرسول ﷺ حَرِص على إسلام عظيم المشركين ذٰلك؛ ليقوى الدين به، فينتشر النور ويعمّ الهدى، ويجيء ابن أمِّ مكتومِ الأعمى رضي الله عنه يبتغي الإرشادَ من رسول الله ﷺ، ولكنَّ رسول الله ﷺ أعرض عنه، وأقبل على الآخر.

غير أن الأمر لم يمض على حاله؛ فإن الله عزَّ وجلَّ أنزل من فوق سبع سمٰواته في ذٰلك قرآناً؛ ليوجِّه عبده ورسوله ﷺ. . . نزَّله بحقِّ رجل أعمى!

أيُّ دين هٰذا الـذي يحبُّ المسـاكين والفقـراء والضعفـاء؛ يرفـع درجاتهم في الدُّنيا قبل الآخرة؟

إنَّه الدين العظيم، الذي يقدِّم ذٰلك المسكين الأعمى على المبصر العظيم.

---

(1) عبس: ١ ـ ١٢.

(2) رواه الترمذي، وغيره، وهو من «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٦٥١).

ولم يمض الأمر سرّاً، فيحلّ الابتسام مكان العبوس، وينتهي الأمر، بل تتنزَّل على رسول الله ﷺ في ذٰلك آيات عظيمة، يتلوها المسلمون في كل زمان، وهم في هٰذا يردِّدون قصة ذٰلك الأعمى رضي الله عنه، وما فيها من فوائد وعِظات، ترفع قدر المسكين المؤمن والفقير المسلم والمعدم التقيّ.

* أغنياء لم تخدعهم المظهرية:

وفي هٰذا المقام لا بدَّ من ذكر دور إخواننا الأغنياء ممَّن داسوا على المظهريَّات الجوفاء، بأقدام راسخة ثابتة، ذٰلك لما تضمُّه قلوبهم من يقينٍ بالله تعالى وإيمانٍ به سبحانه.

إنهم كما قال الله تعالى فيهم: **﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلوبُ والأَبْصارُ﴾**[1].

هٰؤلاء قدَّموا من أموالهم للفقراء والمساكين، وفي مجالات الدعوة ونشر العلم، لم تمنعهم الدنيا وزينتها، ولا المظاهر وبريقها، من احترام الفقراء والمساكين والبائسين.

هٰؤلاء موجودون ـ وإنْ عُدُّوا أقلّ من القليل ـ في كل عصر ومصر بإذن الله تعالى.

وإنَّك لتحسدهم[2] على ما هم فيه من خير؛ كما قال ﷺ عنهم:

---

(١) النور: ٣٧.

(٢) المراد بالحسد هنا الغبطة، وهو تمنِّي المثل لا تمنِّي زوال النعمة.

«لا حَسَد إلا في اثنتين: رجل آتاه اللهُ القرآن، فهو يقوم به آناء[1] الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو يُنْفِقه آناءَ الليل وآناء النهار»[2].

إنهم يسابقون بالأموال والأعمال، لقد ذهبوا بالدرجات العلى والنعيم المقيم؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال:

جاء الفقراءُ إلى النبي ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدُّثور[3] من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم: يصلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضلٌ من أموال يحجُّون بها ويعتَمِرون، ويجاهدون، ويتصدَّقون.

قال: «ألا أحدِّثُكم بأمرٍ إنْ أخذتُم به أدركْتُم مَن سَبَقَكُم، ولم يدرِكْكُم أحدٌ بعدَكم، وكنتُم خير من أنتم بين ظهرانَيه؛ إلا مَن عَمِلَ مثله: تسبِّحون وتحمَدون وتكبِّرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين».

فاختلفْنا بيننا، فقال بعضنا: نسبِّح ثلاثاً وثلاثين، ونحمد ثلاثاً وثلاثين، ونكبِّر أربعاً وثلاثين.

فرجعْتُ إليه، فقال: «تقول: سبحان الله والحمد لله والله أكبر، حتى يكون منهنَّ كلهنَّ ثلاث وثلاثون»[4].

زاد مسلم في رواية: «فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ،

---

(١) أي: ساعات.

(٢) البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) جمع دَثْر: وهو المال الكثير.

(٤) عن «فتح الباري» (باب: الذكر بعد الصلاة).

فقالوا: سمع إخوانُنا أهل الأموال بما فعلْنا ففعلوا مثله! فقال رسول الله ﷺ: ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

وهٰكذا كانت لهم يد السَّبق في المال والأعمال.

* **رفض المظاهر الإسلامية وتقديس المظاهر الخاوية:**

إنَّنـا نعيشُ مُفـارقـات غريبـة، سببها تعظيم المظاهر والماديَّات، وإغفال النظرة الصائبة للشريعة الإسلامية.

وممَّا يُشعل نار العَجَب في الصدور: أنَّ الإسلام حين يأمر بالاهتمام ببعض المـظاهـر؛ تجـد مَن يدعـو إلى التفلُّت من هٰذا بحجَّة الاهتمام بالباطن، وأنَّ المظهرية لا فائدة تُرجى مِن ورائها ـ زعموا ـ!

فإذا خاطبْتهم عن اللحية ـ وهي مظهر من المظاهر ـ؛ قالوا: ليست العِبْرة بالشَّعر، ولكنَّها بالإيمان الذي يعمرُ القلوب!

وإذا قلت لهم: «ما أسفل الكعبين مِن الإزار ففي النار»[1]؛ قالوا: هٰذه قشور!

وإن دَخَل أحدهم مجلساً ولم يقم له بعضهم؛ اشتدَّ غيظُه، ونسي حبَّ القلوب، وطَلَب الاحترام الظاهر بالقيام!

وإن قيل لهم: مصافحة الأجنبيَّة ومَن يحل لهم زواجها حرام؛ قالوا: النفوس عفيفة ونقيَّة!

وإن جاء الفقير الـذي يُرضى عن دينـه وخلقه للزَّواج من ابنتهم؛

---

(١) رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه.

صارت العبرة بالظاهر، واستغنوا عن نقاء الباطن، والمهم أن يكون ذا مال أو منصب أو جاه!

وإذا طُلِب منهم رصُّ الصفوف وتسويتها؛ قالوا: هٰذه شكليات، ولكنهم عندما جاءهم مَن يخطب ابنتهم؛ آمنوا بالشكليَّات، فعقَّدوا الأمور، وضاعفوا المهور، سوَّوا صفوفهم في حفلاتهم ومدارسهم ومعاهدهم ومعسكراتهم، أما في المسجد فلا؛ لأنه من الشكليات!

* *خلاصة وإيضاح في المظهرية:*

كيلا نخلط في هٰذا الأمر، لا بدَّ لنا أن نعلم أنَّ مِن المظاهر ما يجب فعله؛ كإعفاء اللحية، وستر العورة، وإقامة الصلاة... وهٰذه وردت فيها نصوص صريحة صحيحة، وليس لنا فيها مراوحة أو ترك.

ثمّ هناك مظهرية يراوح فيها المسلم بين التنعُّم والترك؛ لئلا تطغى على باطنه، وتصبح غايته وضالَّته المنشودة؛ كترجيل الشعر، والتدهن، والتوسُّع في المشرب والمطعم.

ومظهرية أخرى أعلن الإسلام عليها الحرب، وهي أن نحكم على الناس ونقوِّمهم بميزان المنصب والجاه واللباس والزينة والترف.

* *الجمود على ظاهرية القانون وتأويل الآيات والأحاديث:*

يا عُبَّاد المظهرية! إنكم تجمدون على ظاهريَّة القانون وحرفيَّتِه، فلا مفرَّ لكم من إمضائه وتنفيذه، على جميع الأحيان والأحوال.

كم لاقى الناس من صنوف العذاب في المعاملات والمراجعات من

خلالكم! كم كانوا يقاسون ويعانون من جمودكم على ظاهرية القانون مع أنَّ في الأمر سعة لا تضرُّ بأحدٍ من خلْق الله تعالى! ولٰكنَّكم تصرُّون على المظهرية والظاهر! أما آيات الله تعالى، وأحاديث النبي ﷺ؛ فما أسرع ما تؤوِّلونها! وما أشدَّ اجتهادكم في تعطيلها من خلال قولكم: «الدين يسر»، «للحديث فقه»! فاتَّقوا الله سبحانه في عباده؛ فإنكم عنهم ستُسألون.

* *ضعف الحياء من الله تعالى يؤدي إلى طلب الزينة:*

إنَّ ضعف الحياء من الله تعالى أدَّى بنا إلى طلب زينة الحياة الدنيا، فإن من استحيا من الله تعالى حقَّ الحياء؛ تَرَك زينة الحياة الدنيا.

عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«استحيوا من الله تعالى حقَّ الحياء، مَن استحيا مِن الله حقَّ الحياء؛ فليَحْفَظِ الرأس وما وَعَى، وليحفظِ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبِلى، ومَن أرادِ الآخرة؛ تَرَك زينة الحياة الدنيا، فمَنْ فعل ذٰلك؛ فقد استحيا مِن الله حقَّ الحياء»[1].

إنَّ سعْيَ الناس الحثيث وراء زينة الحياة الدُّنيا؛ أنْسى الناس الآخرة، فقلَّ بذٰلك حياؤهم من الله سبحانه.

إنَّه لا بدَّ لمن أراد الآخرة مِن ترك زينة الحياة الدُّنيا، وهو سبيل تحقيق الحياء الحقّ من الله تعالى، هٰذا هو السبيل ولا سبيل سواه.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده»، والترمذي، وغيرهما، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٩٤٨).

* **نظرات في مظهرية قارون:**

ولنا في قصَّة قارون عبرة وعِظة، إذ يقول الله تعالى في كتابه العظيم:

﴿فخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ في زِينَتِهِ قَالَ الَّذينَ يُريدُونَ الحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارونُ إِنَّهُ لَذو حَظٍّ عَظيمٍ . وقالَ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً ولا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وبِدارِهِ الأَرْضَ فما كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ومَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرينَ﴾[1].

فقد خرج قارون على قومه في زينةٍ عظيمة، وتجمُّلٍ باهر ساحر؛ مِن مراكب وملابس، ممَّا دَفَع أهل الدنيا وأحبابها إلى التمنِّي والتشهِّي والتحسُّر على حِرمانهم؛ متمثِّلاً في قولهم: **﴿يَا لَيْتَ لَنا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظيمٍ﴾**.

وحسب هٰؤلاء من الذمِّ قول الله تعالى فيهم: **﴿قَالَ الَّذينَ يُريدُونَ الحَياةَ الدُّنْيا. . .﴾**.

إنَّ حُبَّ الـزِّينة، وتعلُّق القلب بها مرتبط بحب الدُّنيا، فعلى قدْر حبِّها تكون الزينة زيادةً ونقصاً، وبهٰذا نفهم قوله ﷺ: «ومَن أراد الآخرة؛ ترك زينة الحياة الدنيا».

أمَّا الذين أوتوا العلم؛ فلهم شأن غير هٰذا، فماذا كان قولهم؟ . . . **﴿وَيْلَكُم﴾**.

---

(١) القصص: ٧٩ ـ ٨١.

كلمة عظيمة خرجت من أفواه طيبة طاهرة، فيها من التهديد والوعيد والتعنيف ما فيها لأولٰئك المفتونين.

ثم ماذا؟ **﴿ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً﴾**.

أي: جزاء الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة خيرٌ مما تشاهدون وتعاينون.

وهٰذه فائدة العلم، يُعلِّق القلب بالآخرة، ويُنقذه من زينة الدنيا الفانية.

إنَّ رؤية أولٰئك للزينة جعلتهم يتمنَّون مثلها، أما أهل العلم؛ فقد أقرَّت فطرتهم بجمال تلك الزينة، بَيْد أنهم علموا أن ما في الآخرة خير مما رأوا، فنجَّاهم الله تعالى بعلمهم النافع، وأفادوا من الفتنة؛ بالتذكر والاعتبار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولِمَن هٰذا الثواب؟ لِمَن آمن وعمل صالحاً، وتوَّج أعماله بالصبر.

إنها دعوةٌ للإيمان والعمل الصالح والصبر، وهي تُفهِم أيضاً أن تمنِّي الزينة ينافي ذٰلك كلَّه.

ثم يقول سبحانه في حقِّ قارون:

﴿فَخَسَفْنا بِهِ وبِدارِهِ الأرْضَ فما كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ومَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرينَ﴾.

يُبيِّن الله تعالى كيف كانت عاقبة قارون وزينته التي صدَّت عن سبيل الله كثيراً، فقد خسف الله سبحانه به وبداره الأرض، ولم يجدْ مَن ينصره أو ينفعه أو يُنقذه، وكانت عاقبته الخذلان والهلاك.

وهٰذه تذكِّرنا بسنَّة الله في دُول الدُّنيا؛ فإنَّها تبدأ قويَّة الشوكة، ثمَّ إذا لحقَت الزينة والاهتمامات البالغة بها، وأصابها التَّرف؛ كانت مطمع الطامعين، وموئل الغزاة المحتلِّين، وكانت نهايتها بداية دولة أخرى تبدأ بالجدّ والحزم والمثابَرة، فتعمّر زمناً على هٰذا، ثم تلحق بسابقتها في الزينة والترف واللهو، فتبدأ نهايتها لبداية دولة أخرى. . . وهٰكذا.

هٰذا في الدُّنيا، أمَّا في الآخرة؛ فلا تسلْ عن العذاب والخزي والخُسْران، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ثم يقول سبحانه في حقِّ مَن تمنَّى مثل ما أوتي قارون:

﴿وأَصْبَحَ الَّذينَ تَمَنَّوا مَكانَهُ بالأمْسِ يَقولونَ: وَيْكَأَنَّ[1] اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ويَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ[1] لا يُفْلِحُ الكَافِرونَ﴾[2].

يُبيِّن الله سبحانه وتعالى حال الذين تمنَّوا مكان قارون؛ بعد أن عاينوا ما حلَّ به.

لقد علموا أن المال والزينة لا يدلَّان على رضى الله عن صاحبهما، فهو سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهٰذه مأساة أهل الدُّنيا ومحبيها، يظنُّون أنَّ مَن أوتي الزينة؛ فقد حاز السعادة بحذافيرها، وأنَّ الله تعالى سيديم عليه العطاء والرضوان.

---

(١) قيل: معناها: «ويلك اعلم أن»، ولكن خفف فقيل: «وَيْكَ». وقيل: معناها: «ويْكان»؛ أي: ألم تر؟ وقيل أيضاً: «وي كأنَّ»، ففصلها وجعل حَرف «وَيْ» للتعجب أو للتنبيه؛ بمعنى: «أظنُّ وأحتسب». عن «تفسير ابن كثير».

(٢) القصص: ٨٢.

ثم ماذا كان قولهم؟ ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا﴾ .

فلولا لُطفُ الله تعالى ؛ لَخَسَف بنا كما خسف به ، بسبب ما اجترَحْنا من خطيئة التمنِّي ، وقد أنقَذَنا سبحانه ، بعدم إعطائنا مثل زينته ، وعرَّفنا على حقيقة أمره ، ونهاية حاله .

ثم كان ختام قولهم : ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرونَ﴾ .

أيقنوا أنَّ تلك الزينة الخاوية لا تؤدِّي إلى الفلاح ، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة ، كما أنها نابعة من الكفر ، صادرة من الإلحاد ، ذلك لأن دينَ الكفار دنياهم ، ودنياهم دينهم ، فلا هَمَّ لهم إلا الزينة والعلوُّ والمتعة والتلذُّذ على أيِّ وجه من الوجوه .

ثم يقول سبحانه :

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ ولا فَساداً والعاقِبَةُ للمُتَّقينَ﴾[1] .

إنَّ الدار الآخرة ونعيمها المقيم ؛ من حظِّ مَن لا يريدُ علوّاً في الأرض ولا فساداً .

كم من الناس يريدون العلوَّ بالزينة والترف والإسراف؟ إنَّهم يسعَوْن للعلوِّ في زينة الطعام أو الشراب أو الركوب أو الملابس أو الحفلات ، وإنَّ قارون كان ممَّن يسعون للعلو في الزينة ، حتى تمنَّى مكانَه مَن تمنَّى[2] .

---

(١) القصص : ٨٣ .

(٢) ولي كلام مطوَّل في بحث مستقلٍّ في هٰذه الآية العظيمة ، يسَّر الله إتمامه وإخراجه .

نماذج من المظهريات

*** المظهرية في الأفراح:**

لقد عظمت الشَّكليات في أمور الأفراح، حتى إنها ألحقت الأذى بمن يريد أن يُعِفَّ نفسه، وأغلقت سبيل الزواج على كثير من الشباب، وأقْصتْ تفكيرهم عن ذلك؛ لما فيه من التكاليف غير المستطاعة.

ويتمثَّل ذلك في المعجَّل، والمؤجَّل، والأثاث المطلوب، وبَلَغَ الأمرُ غايته في التَّباهي، حتى قالوا: إنَّ مهْر ابنة فلان كذا وكذا، وصداقها من الذهب كذا وكذا.

وإن كان هنالك من بقيَّة خير في أُناسٍ، لم تطمئنَّ نفوسهم للتغالي في المهور، وطلبوا أقلَّ مما يطلب الناس، لكنَّهم قالوا: قولوا أمام الناس: إنَّ مهر ابنتنا كذا وكذا.

ومن المؤلم المُبكي أن تكلِّف الإنارة والإضاءة في الأفراح، في بعض البلاد، مبالغ طائلة، تُطعِم آلاف الجوعى، فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وأمَّا عن الطعام الذي يكبُّ؛ فلا تسأل؛ كأكوام الأرز، واللحوم،

وأصناف الشراب، وغير ذٰلك.

وابتُلِيَ بهٰذا الكثير الكثير، ممَّن عُدُّوا مِن الملتزمين، وتعذَّروا بأعذارٍ واهية؛ منها: أنَّهم لا يستطيعون حيلةً مع أهليهم ومجتمعهم، ففشا المنكر ولم يُنْكَر.

وربَّما استدان المرء مالاً لهٰذا، ولعلَّه في غير هٰذه المناسبة لا يجرؤ أن يدعو إلى الطعام شخصاً واحداً؛ لصعوبة حاله، وقلَّة مالِه.

فكيف به والمجتمع يريد أن يفرض عليه دعوة العشرات أو المئات ممَّن لا همَّ لهم إلا البحث عن الشهوات ولو على حساب الناس؟

كيف به وهو ينظر إلى أكوام الطَّعام تُرمى، وقلبه يغلي حسرة على ما رَكِبه مِن دَين؟

كيف به وفكره يتقلَّى بالهموم، وهو يسائل نفسه: كيف ومتى أسدُّ هٰذه الدُّيون؟

فاتَّقوا الله أيها المسلمون! فكم من أفواه تُسَدُّ جوعتها بالأطعمة المهدورة؟

وكم من حاجات تُقْضى بهٰذه الأموال المسفوكة؟

* ***المظهرية في المآتم***[1]:

فإذا أصاب أحدَهُم الموت؛ تضاعفت المصائب، وتواكبت

(١) هناك رسالة قيمة نافعة بعنوان: «منكرات المآتم والموالد»، فارجع إليها إن شئت، وهي رسالة أصدرتها وزارة الأوقاف المصرية، بقلم طائفة من علماء الأزهر، حقَّقها وقدَّم لها وعلَّق عليها الأستاذ محمود مهدي استانبولي حفظه الله تعالى.

المصـاعب، وتسـارَع النـاس لدعوة أهل الميِّت مع جموع كثيرة؛ ليسجِّـل ديناً في رقابهم، فتُصنع كمِّيَّات هائلة من الطعام، وربَّما تقصَّد بعض صغـار العقـول، شراء اللحـوم المجمَّـدة المستـوردة المحرَّمة أو المشبوهة منها ـ نظراً لانخفاض ثمنها ـ، ثمَّ شراء الرؤوس لتصديرها فوق الطعام حتى تُحْسَب ذبائح.

ثم يُؤكَل ما يؤكل، ويُلقى ما يُلقى، غير مأسوف عليه؛ إلا مَن تكلَّف عليه من الفقراء، أو استدان إلى أجل غير مسمًّى.

وهل تنحصر الدَّعوة للطَّعام على أهل الميت فحسب؟ لا، ولكن معهم أعداد كبيرة.

وتنقلب دار أهــل الميِّت في بعض البـلاد الإسـلامية إلى فنـدق ومطعم، كما يستنفر ذوو الميت؛ لخدمة الناس وتأمين طلباتهم وقضاء حاجاتهم.

فأين ذهبنا بحديث رسول الله ﷺ: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً؛ فإنه قد أتاهم ما يَشْغَلُهـم»[1]؟!

ولقد صدق مَن قال:

ثلاثــةٌ تَشْـقَـى بِهِـنَّ الـدَّارُ   العُــرْسُ والمَـأْتَمُ ثُمَّ الـزَّارُ[2]

---

(١) رواه أحمـد في «مسنده»، وأبو داود، والترمذي، وغيرهم، وهو من «صحيح الجامع» برقم (١٠٢٦).

(٢) حفلة راقصة تُقام لطرد الأرواح الخبيثة التي تمسُّ بعض الأجسام! وأُشير في «المعجم الوسيط» إلى أنها كلمة عاميَّة.

وإليك أخي المسلم بعض مظهريات المآتم[1]:

قبل الوفاة:

ـ وضع المصحف عند رأس المحتضر.

ـ قراءة سورة (يٓس) على المحتضر وتوجيهه نحو القبلة[2].

قال شيخنا الألباني حفظه الله تعالى:

«وأما قراءة سورة (يٓس) وتوجيهه نحو القبلة؛ فلم يصحّ فيه حديث، بل كَرِه سعيد بن المسيّب توجيهه إليها، وقال: أليس الميت امرأ مسلماً[3]؟

وعن زُرْعَة بن عبد الرحمٰن أنه شهد سعيد بن المسيب في مرضه، وعنده أبو سلمة بن عبدالرحمٰن، فغشي على سعيد، فأمَرَ أبو سلمة أن يحوَّل فراشه إلى الكعبة، فأفاق، فقال: حوَّلتُم فراشي؟ فقالوا: نعم. فنظر إلى أبي سلمة، فقال: أراه بعلمك؟ فقال: أنا أمرتهم. فأمر سعيد أن يُعاد فراشه[4]».

بعد الوفاة:

ـ إخراج الحائض والنفساء والجنب من عند الميت.

ـ قراءة القرآن عند الميت حتى يباشر بغسله.

---

(١) جميع هٰذه العناوين الرئيسة وما يليها من نقاط من كتاب «أحكام الجنائز» لشيخنا الألباني حفظه الله تعالى، وتبدأ من صفحة (٢٤٣)، الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامي.

(٢) ولأخي الفاضل علي حسن علي عبدالحميد حفظه الله تعالى جزء مفرد في تخريج الحديث وتضعيفه.

(٣) انظر: «أحكام الجنائز» (ص ١١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (٤ / ٧٦) بسند صحيح عن زرعة؛ كما في «أحكام الجنائز» (ص ١١).

ـ إدخال القطن في دبر وحلق وأنف الميت.

ـ قولهم عند إخبار أحدهم بالوفاة: الفاتحة على روح فلان[1].

غسل الميت:

ـ ذِكْر الغاسل ذكراً من الأذكار عند كل عضو يغسله.

ـ الجهر بالذكر عند غسل الجنازة وتشييعها.

ـ سدل شعر الميتة من بين ثدييها[2].

الكفن والخروج بالجنازة:

ـ نقل الميت إلى أماكن بعيدة، لدفنه عند قبور الصالحين، كأهل البيت ونحوهم.

ـ كتابة دعاء على الكفن.

ـ تزيين الجنازة.

ـ حمل الأكاليل والآس والزهور وصورة الميت أمام الجنازة.

ـ الجهر بالذكر أو بقراءة القرآن أو غير ذٰلك.

ـ التزام حمل الجنازة على السيارة وتشييعها على السيارات[3].

ـ حمْل بعض الأموات على عربة المدفع[4].

---

(١) ويستحب للمخبر بالوفاة أن يطلب من الناس الاستغفار للميت. انظر حديث أبي قتادة رضي الله عنه في «أحكام الجنائز» (ص ٣٣).

(٢) انظر حديث أم عطية رضي الله عنها من كتاب «أحكام الجنائز» (ص ٤٨ / مسألة ٢٨)، والمراد بسدْل الشعر: إرخاؤه.

(٣) إلا إذا كانت المقابر بعيدة؛ كما في بعض البلاد.

(٤) وقد تصاحب الجنازة فرقة موسيقية، إن كان المتوفَّى له شأن عند بعض أهل الدنيا.

الدفن وتوابعه:

ـ وضع دم الذبيحة التي ذبحت عند خروج الجنازة مِن الدار في قبر الميت.

ـ فرْش الرمل تحت الميت لغير ضرورة.

ـ جعل الوسادة أو نحوها تحت رأس الميت في القبر.

ـ رشّ ماء الورد على الميت في قبره.

ـ قراءة فاتحة الكتاب عند رأس الميت، وفاتحة الكتاب عند رجليه.

ـ تلقين الميت[1].

ـ نَصْب حجرين على قبر المرأة[2].

ـ وضع الطعام والشراب على القبر ليأخذه الناس.

التعزية وملحقاتها:

ـ التعزية عند القبور[3].

ـ الاجتماع في مكان للتعزية[4].

---

(١) أشار شيخنا حفظه الله تعالى إلى «السنن والمبتدعات» (٦٧)، و«سبل السلام» للصنعاني في كتابه «أحكام الجنائز» (ص ٢٥٤)، وقال (ص ١٥٥): «... لأن الحديث الوارد فيه لا يصحُّ»، ونبَّه إلى قول ابن القيِّم في «زاد المعاد» (١ / ٢٠٦) وتضعيف النَّووي والصنعاني وغيرهم لذلك.

(٢) وأشار حفظه الله تعالى إلى «نيل الأوطار» للشوكاني (٤ / ٧٣).

(٣) وذكر «حاشية ابن عابدين» (١ / ٨٤٣).

(٤) أورد شيخنا في «أحكام الجنائز» (ص ١٦٧) حديث جرير بن عبدالله البَجَلي رضي الله عنه، وفيه: =

ليت شعري! ما الذي يفعله المجتمعون للعزاء؟! تدخين وكلام في أمور الدُّنيا، وقلَّما تسمع ـ مع الأسف ـ كلمة نافعة تقرِّب إلى الله عزَّ وجلَّ، أو تذكِّر به سبحانه.

إنه لقاء كأيِّ لقاء؛ أسعار الفاكهة، أو الخضار، أو الغلاء، أو أمور التجارة، أو البيع والشراء.

وغالباً ما يدور هٰذا ـ وأعظم منه ـ وأشرطة تسجيل القرآن تعلو بالتلاوة، غير مبالين أو مكترثين.

وإذا جئت تنكر عليهم مبدأ الاجتماع للتعزية؛ اشمأزَّت قلوب الذين لا يحبُّون السنة!

ولا أدري ما الذي يستفيده المصاب من حضور هٰؤلاء، وما الذي

= «كُنَّا نعدُّ (وفي رواية: نرى) الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطَّعام بعد دفنه من النياحة».

أخرجه أحمد (رقم ٦٩٠٥)، وابن ماجه (١ / ٤٩٠) والرواية الأخرى له، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وصحَّحه النووي (٥ / ٣٢٠)، والبوصيري في «الزوائد»، وذكَرَ شيخنا حفظه الله تعالى في الحاشية قول النووي رحمه الله تعالى في «المجموع» (٥ / ٣٠٦)، وفيه:

«وأما الجلوس للتعزية؛ فنصَّ الشافعي والمصنِّف وسائر الأصحاب على كراهته؛ قالوا: يعني بالجلوس لها: أن يجتمع أهل الميت في بيت، فيقصدهم مَن أراد التعزية. قالوا: بل ينبغي أن ينصرفوا في حوائجهم، فمَن صادفهم عزَّاهم، ولا فرق بين الرجال والنساء في كراهة الجلوس لها».

ثم نقل كلام الشافعي في كتاب «الأم» (١ / ٢٤٨) وفيه:

«وأكره المآتم، وهي الجماعة، وإن لم يكن لهم بكاء؛ فإنَّ ذٰلك يجدِّد الحزن، ويكلِّف المؤنة، مع ما مضى فيه من الأثر».

يأتيه إلا التعب والنصب، أفلا يكفيه ما يشغله؟!

ـ تحديد التعزية بثلاثة أيام[1].

ـ اتخاذ الضيافة للميت في اليوم الأول والسابع والأربعين وتمام السَّنة.

ـ اتخاذ الطعام من أهل الميت أول خميس.

ـ وقف الأوقـاف، ولا سيما النقود؛ لتلاوة القرآن العظيم، أو لأن يصلى نوافل، أو لأن يهلَّل، أو يصلى على النبي ﷺ ويهدى ثوابه لروح الواقف أو لروح من زاره.

ـ التصدُّق عن الميت بما كان يحبُّ من الأطعمة.

ـ التصدُّق عن روح الموتى في الأشهر الثلاثة: رجب، وشعبان، ورمضان.

ـ القراءة للأموات وعليهم[2].

ـ قراءة القرآن له وختمه عند قبره[3].

زيارة القبور:

ـ زيارة قبر الأبوين كلّ جمعة.

ـ زيارة القبور يوم عاشوراء.

---

(١) انظر: «أحكام الجنائز» (ص ١٦٥)، وفيه حديث ثبوت تعزية النبي ﷺ بعد الثلاثة؛ كما في حديث عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما، وذكر شيخنا (ص ١٦٦) من الكتاب أقوال بعض أهل العلم في ذلك.

(٢) أشار شيخنا حفظه الله تعالى إلى «السنن» (٦٣ ـ ٦٥).

(٣) أشار شيخنا حفظه الله تعالى إلى «سفر السعادة» (٥٧)، و«المدخل» (١ / ٢٦٦ و٢٦٧).

ـ زيارتها ليلة النصف من شعبان.

ـ زيارة المقابر يوم العيد.

ـ زيارة المقابر يوم الاثنين والخميس.

ـ قراءة الفاتحة للموتى.

ـ قراءة (يٓس) على المقابر[1].

ـ الصياح بالتهليل بين القبور.

ـ إهداء ثواب العبادات كالصلاة وقراءة القرآن إلى أموات المسلمين[2].

ـ إعطاء أجرة لمن يقرأ القرآن ويهديه للميت.

ـ تغشية قبور الأنبياء والصالحين وغيرهم

ـ تقديس ما حول قبر الوليّ من شجر وحجر، واعتقاد أن مَن قطع شيئاً من ذٰلك يصاب بأذى.

ـ تزيين القبر.

ـ جعل المصاحف عند القبور لمن يقصد قراءة القرآن هناك.

ـ ربط الخِرَق على نوافذ قبور الأولياء ليذكروهم ويقضوا حاجاتهم.

---

(١) قال شيخنا حفظه الله في «أحكام الجنائز» (ص ٢٥٩):

«وحديث: «ومن دخل المقابر فقرأ سورة (يٓس) خفف الله عنهم، وكان لهم بعدد من فيها حسنات» لا أصل له في شيء من كتب السنة».

ثم أورد كلام السيوطي، وقال:

«ثم وقفتُ على سنده، فإذا هو إسناد هالك؛ كما حقَّقته في «الأحاديث الضعيفة» (١٢٩١)».

(٢) انظر للمزيد إن شئت المسألة (١١٧) من كتاب «أحكام الجنائز».

ـ إلقاء المناديل والثياب على القبر بقصد التبرُّك.

ـ استلام القبر وتقبيله.

ـ الطواف بقبور الأنبياء والصالحين.

ـ الذبح والتضحية عند القبور.

ـ قصد قبور الأنبياء والصالحين للصلاة عندها.

ـ الاستغاثة بالميت منهم؛ كقولهم: يا سيدي فلان أغِثْني، أو انصرني على عدوِّي.

ـ رفع القبر والبناء عليه[1].

ـ نقْش اسم الميت وتاريخ موته على القبر.

ـ بناء المساجد والمشاهد على القبور والآثار.

ـ دفن الميت في المسجد.

ـ استقبال القبر في الصلاة مع استدبار الكعبة.

ـ تعليق قنديل على القبر ليأتوه فيزوروه.

ـ السفر لزيارة قبره ﷺ[2].

---

(١) وفي «أحكام الجنائز» (ص ١٥٣) أورد شيخنا حفظه الله تعالى حديث جابر رضي الله عنه:

«أنَّ النبي ﷺ ألحد له لحد، ونصب عليه اللبن نصباً، ورفع قبره من الأرض نحواً من شبر».

وقال: «رواه ابن حبان في «صحيحه» (٢١٦٠)، والبيهقي (٣ / ٤١٠)، وإسناده حسن».

وذكر حفظه الله تعالى (ص ١٥٤) قول الشافعي في «الأم» (١ / ٢٤٥ ـ ٢٤٦) والنووي في «المجموع» (٥ / ٢٩٦).

(٢) قال رسول الله ﷺ: =

ـ سؤاله ﷺ الاستغفار وقراءة آية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ الآية.

ـ التوسل به ﷺ.

ـ التمسح بالقبر الشريف.

ـ الطَّواف به.

ـ وَضْع اليد على شباك حجرة القبر الشريف.

ـ إطالة القيام عند القبر النبوي؛ للدعاء لنفسه مستقبلاً الحجرة.

* *المظهرية في الزيارات والدَّعوات:*

ومن مظاهر الاستقبال واللقاء، والانصراف والوداع، تقبيل الرجال لبعضهم البعض، وكذا النساء، وتراهم يفعلون هٰذا وقلوبهم قد مُلئت جفاء[1]، وقد غاب عن معرفتهم أو قلوبهم نهي الرسول ﷺ عن ذٰلك؛ كما في حديث أنس رضي الله عنه؛ قال:

قال رجل: يا رسول الله! الرجل منَّا يلقى أخاه أو صديقه؛ أينحني له؟

قال: «لا».

= «لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هٰذا، والمسجد الأقصى».

رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(١) لا أقول هٰذا رجْماً بالغيب، ولكني أقوله ممَّا أراه من الأثَرة والبخل وعدم إعانة المحتاجين من أقاربهم وإخوانهم، أضف إلى ذٰلك ما يبدو منهم من غيبة وقدح في الظهور لمن يعانقونه بالصُّدور.

. . . .

. . . .

قال: فيأخذ بيده ويصافحه؟

قال: «نعم»[1].

ليت شعـري! هل يريد هٰؤلاء أن يُحقِّقـوا المحبَّة والألفة بمخالفة هدي رسول الله ﷺ! وأنَّى لهم ذٰلك!

فها نحن نرى البغضاء والكراهية والحسد والحقد تدبُّ في نفوس هٰؤلاء؛ إنهم يريدون أن يُطَمْئِنـوا أنفسهم بأداء الـواجب نحـو أصحابهم وأقاربهم بالتقبيل والعناق؛ متعامين عن السبيل القويم في أداء الواجب؛ بالصلة، والتزاور، والعفو، والصفح، والإيثار، والتناصح، وبذل المال.

وفي الـزيارة؛ أوجب المجتمع الهدية على الزائر، حتى إن بعض الفقراء، رأوا عدم زيارة أقاربهم؛ حَرَجاً من هٰذا الأمر.

وتتمثل مظهريَّةُ الدعوات؛ في تعدُّد أصناف الطعام وأشكاله، حتى كأنه أصبح من العيب الاقتصار على النوع الواحد منه، وطغى الإسراف على هٰذا الأمر، وفشا هٰذا الحال، حتى في أهل المساجد والدعاة، ومن هم في مقام القدوة، وأُلقي في أماكن القمامة كميات وكميات من الطعام، تبكيها أفواه محرومة وبطون خاوية.

ولما كان أمر الدعوة للطعام كما قلتُ؛ لم يتجرأ الكثير الكثير على

---

(١) رواه الترمذي وغيره، وهو حسن بشواهده، وأمَّا قوله: «ولا يلتزمه»، فلا شاهد له كما في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٦٠) التحقيق الثاني.

دعوة إخوانهم وأحبابهم؛ لما يلحقهم من تكاليف مادية، أضف إليها معاناة الزوجة من إعداد هٰذه الأصناف، وما يتبعه من مشقَّة في تنظيف الصحون والأواني الكثيرة.

وكم يتردَّد الكريم اليوم في دعوة من يدعوه؟ فكيف بمن دونه؟ ذٰلك أمر لا يَرِد في قاموسه أبداً! إلا لمناسبة فرضها عليه المجتمع، يخشى فيها الافتضاح، أو أن يقال عنه: بخيل!

لعلَّك تستطيع أن تعدَّ الدَّعوات التي تُدعى إليها في العام، بل وربَّما في العمر.

كيف هٰذا ورسول الله ﷺ يقول: «خِياركم من أطعم الطعام»[1]؟!

وبَلَغَ الأمر بالمسلم أنَّه توقَّف عن مثل هٰذه الدعوات، حتى يناقش الأمر مع زوجته، وتقرَّه على ذٰلك!

*** المظهرية في الدوائر والمؤسسات والشركات:**

ومن المظهريات التي انتشرت انتشار النار في الهشيم؛ مظهريات الدوائر والمؤسسات والشركات في أقطار الأرض، فترى الجمود الشديد على حرفية القانون[2] دون تفهُّم أو تبصُّر، وهٰؤلاء المتشدِّدون أنفسهم يؤوِّلون ـ على هواهم ـ نصوص الشريعة، ويحاربون الجمود على النص، ويقاتلون ظاهرية الأدلَّة، ويقولون دائماً: «إنَّ مراد الشريعة التيسير»!

---

(١) رواه أحمد وغيره، وهو من «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٤).

(٢) مضت إشارة لطيفة بهٰذا صفحة (٤٨) بعنوان: «الجمود على ظاهرية القانون، وتأويل الآيات والأحاديث».

والأمثلة على مظهريات الدوائر والمؤسسات والشركات كثيرة، منها ما جرى معي شخصيّاً حين كنتُ مســافــراً بسيَّارتي عَبْــر بعض البـلاد الإسلامية، فلما أن رجعْت؛ مضيتُ لإعادة دفتر السيارة، والتحلُّل من ارتباطاته

ـ قال قائل منهم: «هناك توقيع ناقص، فهات وثيقة من دائرة المرور؛ تثبت وجود السيارة».

ـ قلتُ: هٰذه السيارة موجودة.

ـ قالوا: هٰذا لا يُجْدي.

ـ قلت: ها هو توقيع وختم دخول البلاد، أوَلا يعدل هٰذا أن آتي لكم بورقة من دائرة المرور؟

ـ قالوا: لا جدوى، لا جدوى.

ذهبْت إلى دائرة المرور بسيَّارتي لأثبت أنها موجودة!

ـ قال أحدهم: هٰذه تحتاج إلى فحص شامل.

ـ قلت: ما لهٰذا جئت، ولكن لأثبت وجودها بوثيقة من عندكم.

ـ قالوا: فلماذا سُمِّينا بقسم الفحص الفني؟

ـ قلت: تفضلوا وافحصوها.

كانت هنـاك مآخذ شكلية، منها صبغ بعض الأماكن، وقد تحتاج لوقت لا يتسع له وضعي وأنا أتأهب للسفر.

ـ قالوا: لا بدَّ أن تصلح المواطن المطلوبة لتعطى الوثيقة.

ـ قلت: سبحان الله! أنا لا أريد إلا ورقة تثبت وجود السيارة، فلماذا تجعلون من هٰذا قصة؟

ومن المظهريات المضحكة أن يسافر الرجل مسافات طويلة بسيَّارته، إلى بلادٍ إسلامية أخرى، ثم يحاول الحصول على رخصة قيادة سيَّارة مِن تلك البلاد التي وَصَل إليها، فإذا امتُحِنَ رسب، وبعد ذٰلك يذهب إلى سيارته ليقودها حيث شاء!

لعلَّ حجَّة القوم: «هٰذه قوانين دولية»!

وحتى لو كانت قوانين دولية، أوليست قيادة مَن لا يحسن القيادة خطراً على الأرواح والممتلكات؟ فإما أن يكون قادِراً على القيادة؛ فلْيَقُد سيارته في أرض الله تعالى كلها، وإما أن يكون عاجزاً عن ذٰلك؛ فلا يفعل هٰذا في أي مكان.

* *المظهرية في التجارة:*

واستفحلت المظهرية في التجارة، فرفعت زركشة بعض الأشياء الأسعار، وراجت بعض الأصناف في السوق، فاستغلَّ بعضهم ترويج بضاعته؛ بِجَعْل المظهر الخارجي لها شبيهاً لتلك الأصناف، بحيث يُشكِل على المشتري التمييز بين الصنفين، ومَن قَدِر على ذٰلك؛ فقد وقع في نفسه أن البضاعتين سواء في الجودة والحُسن.

وهناك صنف ممَّن لا خلاق لهم، نظروا في الكتب ـ ولا سيما الإسلامية منها ـ نظرة تجارية، فقاموا بتغييرات طفيفة، وغيَّروا العنوان أو الغلاف، وكتبوا أسماءهم عليها[1].

---

(١) ومن ذٰلك الصنف شخص أفَّاك يُدعى علي الطهطاوي، من مصر، قام بسرقة كتابي «القبر: عذابه ونعيمه»، وكتَب عليه اسمه، وكان في الطبعة الأولى قليل الخبرة =

ومثلهم بعض النَّاشرين ممَّن لا يخشَون الله تعالى إلا قليلاً، قاموا باختيار العنوان الجذَّاب والغلاف البرَّاق، ولو خلا الكتاب من العلم والفائدة، وربما ادَّعوا ـ كَذِباً وزوراً ـ أنها من تحقيق بعض المشاهير من المؤلفين أو المحققين.

وبعضهم يكتب: «طبع بتحقيق لجنة من المحقِّقين بإشراف الناشر»! هٰكذا، وليس لهٰؤلاء ـ أصلاً ـ وجودٌ عندَهم[1]!!

وكَثُرت المظهريات في تجارة اللحوم، ولمَّا رأى تجَّارها تحرُّج عدد من الناس لا بأس به؛ مِن أكْل ما لم يُذبح منها الذبح الشرعي، لجؤوا إلى طريقة خبيثة، وهي استخدام عبارة: «لحم حلال»، أو «ذُبِح على الطريقة الإسلامية»، يُغَلِّفون بها اللحوم التي ذُبحت بغير الطريقة الشرعية.

وحَكَى لي أحد الأصحاب عن وصول سيارة كبيرة محمَّلة باللحوم إلى بلد إسلامي، فأُعيدت السيارة إلى البلد المصدِّر، حرصاً على استيراد اللحوم المشروعة، فلمَّا أنْ بلَغَ ذٰلك التاجر الماكر قال: «لقد فاتنا أن نتصرف»! فوضع الملصقات على نفس البضاعة، وقد كَتَبَ عليها: «ذبحت على الطريقة الإسلامية»! ثم أُدخلت اللحوم نفسها إلى تلك

= بالمظاهر والشكليات، ولكنَّه أجاد بعد الطبعة الأولى، فسمَّى الكتاب: «أهوال القبور وما بعد الموت»، وسَرَق فيه كتابي بكامله، وأضاف له إضافات لا إخالها إلا مسروقة من كتب أخرى، والله أعلم.

وإنني لأسأل الله تعالى أن يعينني على نشر كتاب خاص بالردِّ عليه؛ ليكون عبرة لمن اعتبر، وعظة لمن اتَّعظ.

(١) قاله أخي علي حسَن علي عبدالحميد حفظه الله.

البلاد.

وأراد أحدهم أن يتوثَّق من شركة توزِّع اللحوم بأسعار مخفَّضة، فاتصل بالشركة، وقال: «نريد إجراء مقابلة صحفيَّة وتصوير تلفازي لعملية الذبح»، فكان جواب الخبثاء: «لا داعي لقدومكم؛ فإننا نستورد هٰذه اللحوم، ونقوم بتعليبها وتغليفها، ثم نكتب عليها: حلال»!!

* *المظهرية في المدارس*:

وأمَّا عن المظاهر الخاوية في المدارس؛ فحدِّث ولا حرج، ففي الإذاعة المدرسية لحن في قراءة القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، فضلاً عن كلام البشر، ثم تعقبها برامج لا يُعرف أولها من آخرها، ولا آخرها من أوَّلها، غير أنَّ المهم هو الاستمرار في الإذاعة المدرسية[1].

والمنهاج المقرَّر المطوَّل في بعض المواد كالأسد المفترس يطارد المدرِّس، فلا همَّ لهٰذا المطارَد البائس إلا أن يُنقذ نفسه من هٰذه المسؤولية، وبذٰلك تفوته حقيقة التربية والإفادة، هٰذا عند مدرِّسي التربية الإسلامية واللغة العربية؛ فضلاً عن غيرهم.

وأمَّا مطيَّة الكثير من العاجزين والجاهلين والمنافقين ـ وبئس الفعل ـ أن يُرَدِّدوا كلمة (العملية التربوية)، فإذا أرادوا أن ينفذوا إلى مأرب من المآرب، أو مقصد من المقاصد؛ قالوا: «العملية التربوية تقتضي كذا وكذا...».

---

(١) وأنا أدعو لاستثمارها الاستثمار السليم، وتوظيفها التوظيف الصحيح، فكلمات يسيرة قليلة تنفع وتجدي، وتصحِّح المسار والسلوك، خير من جعجعة لا يعْقبها طِحن.

وفي الوسائل التعليمية[1]؛ يعصرك الألم وأنت ترى المدرسة تغصُّ بها، وفيها ما فيها من الأخطاء النحْويَّة، وقد تُكُلِّف عليها، ودُفع فيها مبالغ ومبالغ، تراها وكأنك لا تراها.

إنهـا وسيلة ناجحـة لتـزيين المـدرسـة، أمـا الثمرة المرادة والعلم والفائدة؛ فلا منزلة لها في هٰذا الموضع، ولا مكانة!

ما الـذي تدعونا إليه هٰذه الملصقات والوسائل؟ ذٰلك أمر لا يعرفه الراعي ولا الرعيَّة!

فرحات غامرة تخالج مَن يشرفون على المدارس حين يأتي الزائرون والمسؤولون وهم يَرَوْن الوسائل والملصقات قد غطَّت المدرسة وزركشتها وزخـرفتهـا، بالإضـافـة إلى حفـل صغير من كلمات لبعض المجدِّين، وأصناف من الطعام والحلوى تُختم بها الزيارة، تُعطِي انطباعات النجاح والتفوُّق والتقدُّم، وقد خفي عنهم ما خفي.

كَذَا فَلْيَجِـلَّ الخَـطْبُ ولْيَفْدَحِ الأَمْرُ
فَلَيْسَ لِعَـيْنٍ لَمْ يَفِضْ ماؤهـا عُذْرُ

وممـا يدمي القلوب، أن تُعقد ندوات ومحاضرات لمدرِّسي اللغة العربية؛ في بعض البلاد الإسلامية، فتسمع ممَّن يُشرف عليها ما لا ينبغي أن تَسمـع؛ من التكلُّم بغير فصيح القـول، واللجوء إلى تسكين ما حقّه

(١) لا يعني هٰذا إنكار الوسيلة التعليمية واستخدام ملصقات الحائط النافعة على إطلاقها؛ فإن لها وظائف طيِّبة تخدم المادة، وتُذلِّل الصعب بإذن الله سبحانه، ضمن أوقات وأمكنة وشروط محدَّدة.

التحريك؛ إلا ما قلَّ وندر.

فأين الثمرة من دراسة وتدريس اللغة العربية؟ وأين الأهداف التربوية المزعومة؟ لا يكاد العاقل يُصدِّق هٰذا!

وفي «دفتر التحضير»[1] ما يُبْكي الضاحك، ويُضحك الباكي، فالمدرس يكتب ما لا يقتنع بكتابته، وكم كنت أعرض هٰذا السؤال للإخوة المدرسين، وللمجدِّين منهم وأصحاب الخبرات الطويلة: هل أنتم مقتنعون بما تفعلون؟ فيقولون: لا. فإن كان أصحاب المَيْدان لم يرَوْا جدوى في هٰذا الأمر، فمَن ذا الذي يجد الجدوى؟ فإمَّا أن يكونوا جميعاً على غير حقٍّ، أو أنَّ «دفتر التحضير» وسيلة فاشلة، ومظهرية خاوية.

مناقشات حول دفتر التحضير:

جرت لي مناقشات مع بعض الزملاء؛ من الموجهين حول هٰذا الموضوع:

- فقال أحدهم: إن المدرِّس يدوِّن لنفسه.
- فقلت له: فلا تسألوه عن هٰذا الدفتر إذن.
- وقال زميل آخر: إنَّ الإعداد في دفتر التحضير، كمن يذهب للسوق واعياً ما سيشتريه.
- ويأتي الجواب بصيغة سؤال: هل تحمل ـ أخي الفاضل ـ دفتر تحضير في كل زيارة سوق، تُراعي بذٰلك التهيئة الحافزة، وتغطِّي فيها

(١) لا أنكر بأيِّ حال التحضير العلمي والإعداد الذهني المُجدي ـ وليس لي ولا لغيري ذٰلك ـ؛ فهٰذا من الأمور التي لا يتمُّ النفع إلَّا بها.

الأهداف والأساليب والأنشطة والتقويم، وتنوّع وتشوّق. . . و. . . و. . . أم أنَّك تحمل ـ على الأكثر ـ قُصاصة ورق تدوِّن فيها ما تريد شراءه؟

وناقشتُ زميلاً آخر ذات يوم، فبدت قناعاته القوية بجدوى الدفتر، ولكنَّه نسي ما يدينه ويحُجُّه، وهو ما يلي:

أشعر الزميل بحضوره عند أحد مدرِّسي التربية الإسلامية في الحصَّة الأولى، فاعتذر الأخ المدرس لتطبيق شفوي يريد إجراءه.

ـ فقال له الأخ الموجِّه: أنت تعلم أن اللائحة تنص على عدم إفراد حصة كاملة لتطبيق شفوي، على كل حال اجعلها حصة تلاوة، ثم تحضِّر بعدها.

وحضر عنده تلك الحصة.

والسؤال الآن: إن كان الإعداد في الدفتر قد بَلَغَ من الأهمِّية ما بلغ، وبدونه لا تتمُّ الفائدة، ولا يكون النفع، فلم أذِنْت لنفسك بدخول الأخ المدرِّس لحصَّة من غير هٰذا كلِّه؟ أليست هٰذه خيانة في الواجب يا شيخنا الفاضل؟ أم أن إذنك له يدلُّ على عدم فائدة هٰذا الدفتر؟

حُجَّة واهية:

وحجَّة التوجيه الرئيسة في هٰذا الموضوع قوله ﷺ: «قيِّدوا العلم بالكتاب»[1].

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك»، وغيرهما، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٤٣١٠).

وأنا مع إقراري بثبوت الحديث أقول: لقد قال هٰذا الحديث رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام رضي الله عنهم، وهم أحرص الناس على خير، ثم بلَغ التابعين وتابعيهم بإحسان، وكان فيهم الأشياخ والأساتذة والمربُّون، فماذا فهموا من هٰذا الحديث؟

إنهم لم يفهمـوا من هٰذا الحديث وجوب اصطحاب دفاتر تحضير ساعة وعْظهم وتدريسهم وإرشادهم للناس.

لا يجرؤ مسلم أن يتَّهم ذٰلك الجيل السامق بعدم الامتثال لقول النبي ﷺ، فما الذي قيَّده ذٰلك الجيل الفريد؟

إن العلم الذي قيَّدوه قد أشرقت الدنيا به، فلا يستطيع إنكاره أحد.

إن العلم الذي دوَّنوه خرَّج الفاتحين الأبطال... إنَّه خرَّج الأشياخ والفقهـاء والعلماء والسادة والقادة. فانظروا يا قوم ما الذي خرَّجه علمنا؟ وتأمَّلوا ما عاقبة مخاض تدويننا وتقييدنا؟

هل عثـرتم يا قوم من العلم الـذي أُمِروا بتدوينه وتقييده على دفتر تحضير واحد لهم كدفاتركم هٰذه؟

لمـاذا لم يفهم ذٰلك الجيل السابق من الحديث، اتخاذ كراسات التحضير في دروسهم ومواعظهم، ثم يمضي عليها رسول الله ﷺ ويكتب: «نُظر مع الشكر»؟

ثم إذا كان تقييد العلم بالكتاب متمثِّلاً بـ «دفتر التحضير المزعوم» فلماذا يتحرَّج المدرِّس من النظر فيه أو في الكتاب حين الإيضاح والبيان للطلَّاب؟

قد يقـول قائـل: لا حرج من النظر، والتعليمات لا تُعارض هٰذا.
فنقول: إنَّ الواقع العمليَّ ينسف هٰذا ويدفنه.

ما زال المدرِّس يكذب ويتحرَّى الكذب في «دفتر التحضير» ليُرضي المـوجِّـه، أو ليكتفي شرَّه وشـرَّ غيره في اختيار العبـارات، واصـطفـاء الأهـداف، وتنويع الأساليب والأنشطة، وهو يعلم أنَّه يقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يقول، وهو يُفتي لنفسه بجواز ذٰلك؛ ليعيل صغاراً ويدرِّس كباراً!

ومِن مهازل المظهرية الخاوية، أن يقدِّم أحد المدرسين خطأ خطة سنـوية لبعض المواد للسنة التي قبلها، لأحد الموجهين، فيمضي عليها بالمشاهدة، ثم يكتب في التقرير ما لَذَّ وطاب عن الخطة وحسنها، علماً بأنها لا تمتُّ بصلة للصف والمواد التي يدرِّسها، وبينما كان هٰذا المدرس يقلِّب أوراقـه؛ فوجىء بتـوقيعيْن لموجِّهَيْن اثنين، فاكتشف الخطأ الذي فعَل، وأنه لم يقدِّم الخطة الجديدة.

فعلامَ يدلُّ هٰذا أيها الإخوة؟ لو كان هٰذا الأخ الموجِّه متساهلًا في هٰذه الأشياء؛ لقُلْنا: هٰذه أمور صُورية، فلا موجب للقول، بيد أنَّ الذي يعظِّم الأمر أنَّ أخانا الموجه من المتشدِّدين في هٰذا الأمر.

حسْبكـم أن تزنـوا العطاء بدفتر مُزيَّن، يُنسى فيه العرق المنزوف، والأعصاب المحروقة، والجهود المبذولة.

كفـاكـم وزراً أن تتلقـوا هٰذه التعاليم؛ من أفواه بعضها تشرك بالله سبحانه وتعالى، وتشرب الخمر، وتأكل المحرَّمات.

إننا نتلقّى ـ إن كان ولا بدَّ ـ من هٰؤلاء العلوم البحتة[1]، أما الاعتقاد والفكـر والأسلوب والمنهـاج والخلق والتـربية؛ فهٰـذا نأخـذه من الأفـواه المتوضئة المستاكة الطيبة، الذاكرة لله تعالى.

أين الشخصية الإسلامية المتميِّزة؟

أين الأفواه المتحرِّرة؟

أين الأيدي الطليقة؟

ألا رَسَت اهتمـامـاتكم ـ غفر الله لكم ـ وانصبَّت متابعاتكم على العلم الحقيقي، على ثمرة الثمرات، على تخريج جيلٍ من الطلاب واعٍ مُدركٍ، يُترجم العلم إلى عمل، يفيد الأمة، ويغيثها بإذن الله سبحانه من كرباتها، ويُنير لها السبيل.

وأخيراً؛ أُذَكِّر بحديث رسول الله ﷺ:

«لا تزول قدمـا ابن آدم يوم القيامـة من عنـد ربِّه؛ حتى يُسأل عن خمس: عن عمـره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله؛ من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم؟»[2].

---

(١) هٰذا ـ وللأسف ـ بسبب غفلة المسلمين وتقاعسهم، وإلا فإبداعاتهم السابقة في شتّى العلوم قد ملأت البقاع يوم كانوا يفرحون بالإيمان والإسلام.

(٢) رواه الترمذي عن ابن مسعود، وحسَّنه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧١٧٦).

نصيحة للموجِّهين:

وأودُّ أن أنصح الإخوة الموجِّهين بالإقبال والمثابرة على العلم النافع، بحيث يشعر المدرِّس أنه أمام عالم، يتلقَّى منه ويستفيد؛ كالطالب؛ مهما جدَّ واجتهد؛ فإنه يشعر أنه دون أستاذه علماً وفهماً ومعرفة.

أريد من الأخ الموجِّه ألا تكون سلطته على المدرِّس من قبل مهنته ومسؤوليته، بل بغزارة العلم، وسعة المعرفة، وكثرة الاطلاع، وهذا ما نفتقده مع بالغ الأسف، ومن هنا تنشأ التحفُّظات والخصومات بين المدرِّس والموجِّه؛ لأن المدرِّس يشعر أنه أمام شخص مثله، وربما دونه، علماً وتجربة، غير أنَّه حُكِم له بسبب الوظيفة.

إنَّ تدوين ملاحظات عن شخص يُلقي درساً، أمر غير عسير، يستطيعه أي مدرس.

إنَّ الشعور ليراود المدرِّسين أنَّ ما يُكتب من التوجيهات أمور شكلية يدوِّنها الموجِّهون، يريدون بذلك ملء سطور يثبتون فيها أنَّهم قاموا بالواجب.

ولعلَّ الأمر الذي يُعْذِرُ به الموجِّهون أنفسهم، أنَّهم يريدون الحفاظ على الوظيفة التي يُسِّرت لهم، في وقت يبحث الناس فيه عن مثلها أو دونها فلا يجدون.

إن ألسنة البعض منهم لتكاد تنطق بهذا، فيقولون للمدرِّسين: «ذرونا نتعامل بأمان وإياكم، نكتب ونوجِّه وننتقد وننفِّذ ما جاء من تعليمات؛ لا نقتنع نحن ولا أنتم بصحَّتها».

وهٰذا لا يعني أنَّ الإخوة المدرِّسين مبرَّؤون ـ ولم أنصِّب نفسي للنقد والمقارنة والتقويم ـ، ولا أبخسهم حقهم، فمنهم مَن يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى، ومنهم من لا يُحسن أداء عمله إلا ما دُمْتَ عليه قائماً، ومنهم من يترك الأثر السيىء في نفوس الطلاب لسوء سلوكه وألفاظه وأفعاله.

إنني لا أكتب لأنتصر لفريق دون آخر، أو لمهنة دون أخرى. . . إن الأمر لأشد من ذٰلك. . . إن المرمى لأسمى وأعلى.

إن الأمر يمسُّ مصلحة الأمة على مر الأيام والأزمان. . . إنه يتعلَّق بتربية الأجيال. . . وإنها لمسؤولية عظيمة سنسأل عنها بين يدي الله تعالى.

فلنحاسب أنفسنا قبل أن نُحاسَب، ولنسأل أنفسنا:

ما الفساد الذي أصلحناه؟

ما الأخطاء التي صوبناها؟

ما الذي قدَّمناه وأفَدْنا به؟

هل لغيابنا مخاطر على سلوك وتربية وتعلُّم الطلاب؟ أم أنَّ وجودنا وغيابنا سواء؟!

* *المظهرية في حبّ النبي ﷺ*:

وممَّا ابتُلِيَت به أمَّتنا ادِّعاء حبِّ النبيِّ ﷺ، والتعبير عنه بأساليب لم تَرِد في دين الله تعالى:

منها مسْح الرأس والوجه وما تيسَّر من الجسد؛ عندما يذكر رسول الله ﷺ! وقد تجد فاعل ذٰلك يتعامل بالربا، وربَّما تخرُجُ زوجته أو ابنته بلباس فاضح!

ومنها معاداة كثير من الصحابة رضي الله عنهم؛ إخلاصاً لحبِّ النبي ﷺ وأهل البيت!! ادِّعاءً وافتراءً أن الصحابة قد كفروا بالله تعالى إلا ثلاثةً منهم.

ومنها الصلاة على النبي ﷺ في مواطن وأماكن مخصَّصة لم يأمرْنا فيها النبي ﷺ بذٰلك، ولم يفعَلْها أحدٌ من أصحابه رضي الله عنهم.

وإنَّما حبُّ الله تعالى بطاعته واتِّباع رسول الله ﷺ، وحبُّ النبي ﷺ باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

قال تعالى: **﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ﴾**[1].

ولهٰذا الأمر العظيم أضرب مثلين توضيحاً وتبييناً:

رجل اشتدَّ به المرض، فأخرَجَ الوصية لابنه الكبير؛ يوصيه بها، أن يعتني بأمِّه، ويترفَّق بإخوانه الصغار، ويتَّقي الله تعالى بما تركه من مال.

مات الأب، واغرورقت عينا ولده بالدموع، ورثى لحاله الحاضرون، ثمَّ جاء للوصيَّة، فقبَّلها، وتمسَّح بها وتبرَّك، وذهب بها إلى خطَّاط لم يُرَ له مثيل، فخطَّط كل حرف بلون، ودفع على الوصية وتكلَّف؛ لتخرج بألوان جذَّابة برَّاقة تسرُّ الناظرين، ثم ذهب بها لفنَّان في الأضواء،

---

(١) آل عمران: ٣١.

قد بذَّ نظراءه وأقرانه في الإبداع، فجعل الحروف تضيء وتبرق وتنير، وهي بذلك تسحر العيون، وتسلب الألباب، ثمَّ وضعها في صدر المجلس؛ يقبِّلها صباحاً ومساء، ويبكي عندها فقد أبيه.

يسمع الابن أنين أمه العجوز خافتاً، فلا يلبِّي ولا يلتفت، ويأتي لإخوانه الصغار، فيوسعهم ضرباً، ويشبعهم شقاء وعناء، وأما عن الأموال التي اؤتمن عليها؛ فقد بسط يده كل البسط في كل حرام ومشبوه.

وولد آخر أقبل على الوصية دون تقبيل، أو تمسُّح أو تبرُّك من غير زخرفة ولا تزيين، يلبي أمر أمه، ويخدمها حقَّ الخدمة، يفرح لفرحها، ويبكي لبكائها، يعتني بإخوانه، ويتابع أمورهم، ويتلطَّف بهم ويترفَّق.

وأما في المال الموروث؛ فكان يعتدل في الإنفاق، ويجعل ذلك في وجوه الخير والبرّ فيما يُرضي الله تعالى.

... فأيُّ الولدين أبر بأبيه؟!

أذلك الذي يتمسَّح ويتبرَّك بالوصية ويقبِّلها، أم ذلك الذي ترك الوصيَّة على حالها ووضْعها؟!

أذلك الذي أمضى ما في الوصية، وعمل بمقتضاها، أم ذلك الذي خالف الوصيَّة؟

وماذا تُغني الزينة والزخرفة والتمسُّح والتقبيل؛ إذا لم يكن للعمل والتنفيذ وجود؟!

تدبَّروا القول أيها الناس، ولا تغرَّنَّكُم الزخرفة ولا المظهريات ولا الشكليات.

* المظهرية في الفتاوى:

ومِن أشدِّ ما تعانيه الأمَّة أولٰئك الذين يتصدَّرون للفتاوى والإمامة والخطابة والإرشاد، وليسوا لهٰذا بأهل، فلَبِسوا الملابس الخاصة، تلك التي توهم أنَّ مرتديها من العلماء، ولمَّا كانوا يعانون من ضيق الوقت بحُكم العمل أو الوظيفة، أو مِن ضعف القدرة على إدامة النظر في الكتب، أو من ضعف الفهم، أضِفْ إلى هٰذا خجلهم أن يقولوا لما لا يعلمون: لا أعلم؛ وجدوا أنفسهم ينصاعون لتلبيس الشيطان، فأفتَوا بلا عِلْم، واعتمدوا آراءهم المجرَّدة، فأصبحَ يفتي كل ذي لحية أو عمامة!!

ولعل أشدّ ما يؤذي هٰؤلاء المتشبِّعين بما لم يُعْطَوْا والمتحلِّين بما لم يُؤتَوا: أن يُسألوا عن الدليل والبرهان والنصِّ، وعندئذ لا يجدون لهم من سبيلٍ؛ إلا أن يرموا السائلين بالتعصُّب والتنطُّع، فناصبوا أهل العلم الصادقين العداء، ووصفوهم بالتشدد والمخالفة والإتيان بالغرائب والعجائب، ذٰلك لأنهم لم يطَّلعوا على ما اطَّلعوا عليه، ولم يتعرَّفوا إلى ما تعرَّفوا إليه.

وإذا ما تحرَّكت بذرة الخير في قلوب أصحاب الأهواء، وشعروا بالحرج من الفتاوى؛ رَفَعَ الشيطان لهم راية «الدين يسر»، فزال الحرج من النفوس، وانهمرت الفتاوى كالمطر!

فإذا علمْتَ هٰذا ـ يرحمك الله ـ لم ترَ عجباً أن يتخرَّج الشخص من كليَّة الشريعة؛ وهو لا يُحسن أحكام الترتيل، وقد يحمل شهادة «الماجستير» و«الدكتوراه» وتراه يذكر الأحاديث الضعيفة والموضوعة؛ لأنه لا يميِّز بين الصحيح والسقيم منها.

ومن الشيء العجاب؛ أن يقول أحدهم في خطبته: «روى ابن الجوزي في الموضوعات»، ويبني على قوله أفكاراً ومعاني وسوكاً؛ ظنّاً منه أنَّ كتاب «الموضوعات» مصدر من المصادر الصحيحة، أو مرجع من المراجع الثابتة؛ كقول القائل: «روى البخاري في صحيحه»، فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وإذا قلتَ لهم: هٰذا حديث ضعيف، أو موضوع؛ قالوا: أأنت أعلم أم ابن كثير؟ وفاتَهم أنَّ الحافظ ابن كثير رحمه الله نفسه قد ضعَّف الرواية، ولكنَّهم قرؤوا المتن ولم يقرؤوا ما يعقبه من الإسناد، وظنُّوا أنَّ مجرَّد الإتيان بالسَّند يعني التصحيح.

ورأى هٰؤلاء أنَّهم ليسوا بأهل لدراسة علم الحديث ومصطلحه، وشقَّ عليهم فهمه واستيعابه، فاكتفوا بتصحيح كل ما وافق عقولهم، وشنُّوا الحرب على أهل هٰذا العلم الشريف، واتَّهموهم بأنَّهم محدِّثون لا فقهاء!

وإذا قيل لهم: «هٰذا حديث ضعيف»؛ قالوا: «يجوز رواية الأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال والعمل بها»! ولكن؛ هل عرف هٰؤلاء الشروط والقيود لهٰذا التجويز؟ أم أنهم يعرفون ما يوافق هواهم ويستر حالهم؟

فإذا جاز ذِكْر الأحاديث الضعيفة؛ فهل جاز ذكر الأحاديث الموضوعة والمكذوبة؟ وهل بَلَغْتُم من العلم ما تميِّزون به بين الضعيف والموضوع؟ أم بَلَغْتُم من الفِقه ما تفرِّقون به بين ما وافق القواعد الشرعية الصحيحة وممّا لم يوافقها، وهل يندرج تحت أصل عام من الدين أم لا يندرج؟

هل عرف هٰؤلاء ـ أصلاً ـ أن هٰذا ضعيف أو موضوع؟ إنهم لا يعرفون ذٰلك، ولكنَّهم يذكرون النصَّ معتقدين ثبوته، فإن جئت تبيِّن لهم ضعْف

الحديث؛ قالوا: «يجوز العمل بضعيف الحديث»!

والنتيجة المحتَّمة لقولهم هٰذا، تفضي بهم إلى تجويز رواية أي شيء يُنسب للنبي ﷺ، وتجويز تأليف الأحاديث كذٰلك، طالما يُراد بذٰلك الخير، فإلى الله تعالى المشتكى.

ولجأ الكثير الكثير إلى أسلوب القصص والحكايات، والتوسُّع في الأمثال؛ ليغطِّي قلة العلم والمعرفة والاطلاع.

ورأى هٰؤلاء الخطابة والوعظ والتدريس أمراً هيناً سهلاً، فهم جاهزون لمخاطبة الناس في أيِّ وقت من الأوقات، لا يفتقرون لإعدادٍ أو تحضير، معلوماتهم لا تزيد ولا تنمو، يغطُّون على هٰذا الأمر كله برفع الصوت وتحريك العواطف، حتى بلغ الأمر بأحدهم أن قال: «الخطابة لعبتي»، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وأودُّ بهٰذه المناسبة؛ أن أُذكِّر هٰؤلاء بأمرٍ عساه يغيِّر ما بهم من حال، وذٰلك عندما جاء بعض الناس لربيعة الرأي رحمه الله تعالى ـ وهو من شيوخ الإمام مالك ـ يطلبون منه أن يترفَّق بنفسه ويتلطَّف بحاله، حين رأوا شدَّة إقباله على العلم، فقال: «سمعت بعض أشياخنا يقولون: إنَّ العلم لا يُعطيك بعضه؛ إلا إذا أعطيته نفسك كلَّها».

فهيَّا أيها الخطباء! خاطبوا أنفسكم بهٰذه الكلمات قبل كل شيء، وهيَّا معشر الوعَّاظ! عِظوا أنفسكم بهٰذه العبارة الناجعة النافعة، وهيَّا أصحاب الفتاوى! أفتوا أنفسكم بهٰذه المقولة الطيبة قبل أن تُفتوا الناس، فهٰذا هو سبيل السداد والهدى والرشاد بإذن الله تعالى.

علاقة المظهرية بالتحايل:

ولا تنسَ أخي المسلم ـ هداني الله وإيَّاك ـ أنَّ التَّحايل الذي يُفضي إلى تحريم الحلال وتحليل الحرام يعتمد على المظهريات، ويرتكز على الشكليات.

من ذٰلك حيلة اليهود في صيد السمك، فقد حرَّم الله تعالى عليهم صيد السمك يوم السبت، وابتلاهم الله تعالى بتوافره ذٰلك اليوم وانعدامه في غيره، وفي هٰذا يقول الله تعالى:

﴿واسْأَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ الَّتي كَانَتْ حَاضِرَةَ البَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ في السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيْتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً ويَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذٰلكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقونَ﴾[1].

فقالوا: إنَّما حرَّم الله علينا الصيد يوم السبت، ولم يحرِّم علينا احتجاز السمك فيه، وكذٰلك فعلوا، واصطادوها في غير ذٰلك اليوم بزعمهم، فاستحقُّوا لعنة الله تعالى لتحايلهم ومكرهم وخبثهم.

وحرَّم الله تعالى على اليهود ـ بظلمهم ـ الشحوم، فأذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها؛ قال الله سبحانه وتعالى في حقِّهم:

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذينَ هَادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبيلِ اللهِ كَثيراً . وأَخْذِهِمُ الرِّبا وقَدْ نُهُوا عَنْهُ وأَكْلِهِمْ أَموالَ النَّاسِ بالباطِلِ وأَعْتَدْنا للكَافِرينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَليماً﴾[2].

---

(١) الأعراف: ١٦٢.

(٢) النساء: ١٦٠ و١٦١.

وتمثـل التحايل في الإذابة والبيع، وهما شكليَّتان، فالإذابة غيَّرت الشكل، والبيع عندهم سوَّغ الأكل!

وفي ذٰلك يقول رسول الله ﷺ:

«قـاتَـلَ الله اليهـود؛ إنَّ الله عزَّ وجـلَّ لمـا حرَّم عليهم الشحوم؛ جملوها، ثم باعوها، فأكلوا أثمانها»[1].

ويقول أيضاً فيهم ﷺ:

«لعن الله اليهـود؛ إنَّ الله حرَّم عليهم الشحـوم، فبـاعـوها وأكلوا ثمنها، وإنَّ الله إذا حرَّم على قومٍ أكل شيءٍ؛ حرَّم عليهم ثَمَنَهُ»[2].

ومِن صُوَر التَّحايل أن يسمِّي القوم الشيء المحرَّم باسم المباح أو الجـائـز، ظانِّين بذٰلـك أنهم يُحسنون صُنعاً؛ كتسمية الخمر مشروبات روحية، وفي الحديث الصحيح من رواية أبي مالك الأشعري رضي الله عنه وغيره أن النبي ﷺ قال:

«ليشربنَّ أُناسٌ مِن أمَّتي الخمر يسمُّونها بغير اسمها»[3].

ولم يقِف الأمر عند الخمر فحسب، بل جاوزه إلى تسمية الرقص والغناء المحرَّم فنّاً، والكذب والدَّجل لباقة وكياسة، والرِّبا فوائد، والفَسَقَة والفَجَرَة كواكب ونجوماً.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» وأبو داود وغيرهما، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٤٩٨٣).

(٣) رواه أحمد في «مسنده»، وأبو داود، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٥٣٢٩).

المظهرية تقتل العمل:

إنَّ مَن يتـأمَّـل في أمر محبِّي المظهرية؛ يرى أنهم من العاجزين الـذين لا يقْوَون على العمل؛ إنَّهم يأوون إلى الشكليات؛ ليقعدوا عن العمل الصحيح المثمر الطيِّب، وإنَّك ترى أحدهم يدَّعي حبَّ الله تعالى ورسوله ﷺ من غير أن يترجم هذا الحبَّ إلى طاعة صحيحة وسلوك حَسَن، وإنَّما يتَّبع هوى نفسه، ويتمنَّى على الله الأماني، وكأنَّه واثق من دخول الجنـة بلا حسـاب أو عذاب؛ كقول اليهود والنصارى ـ كما أخبر القرآن العظيم عنهم ـ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أو نَصَارى﴾[1].

ألا ليتهم قرؤوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبكُمْ واللهُ غفورٌ رَحيمٌ﴾[2].

وليتهم قرؤوا قوله تعالى: ﴿فلا ورَبِّكَ لاَ يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّموكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّموا تَسْليماً﴾[3].

فقد أقسم الله تعالى قسماً عظيماً: أن لا إيمان للمرء حتى يجعل شريعَتَـه سبحانه قوام عيشه، وسلوك أركانه وجنانه، ومنهاج حياته؛ دون حَرَج أو تبرُّم أو ضيق، مع التسليم والإذعان والخضوع له سبحانه.

وهنـاك من يدَّعي حبَّ القـرآن، فيكتفي بتقبيله وتعليقـه في صدر المجلس، دون العَمَل بمقتضاه، مِن غير أن يأتمر بأمره، أو ينتهي بنهيه.

---

(١) البقرة: ١١١.

(٢) آل عمران: ٣١.

(٣) النساء: ٦٥.

ولئن نسيت فلن أنسى ما جرى ذات يوم، حين أخذْتُ زوجتي إلى إحدى الطبيبات للمعالجة، فأحببتُ الاستفادة من زمن الانتظار، فسألْت الطبيبة عن مُصحف؛ لأقرأ فيه ما تيسَّر من الآيات، فقالت: ليس عندي مصحف، ولكن يا حاج! هٰذه العيادة ملأى بالآيات والقرآن الكريم ـ تعني: الملصقات والمعلَّقات ـ!

* كِبْرٌ ومجاراة للمجتمع:

لا شكَّ أنَّ الكِبْر ـ أو شيئاً منه ـ هو الذي يحفز الشخص للظُّهور أمام الناس بمظهرٍ يأبى فيه التواضع، ويحب فيه العُلو والظهور، فكم من الناس استحيوا أن يركبوا السيارات المتواضعة، زهيدة الثمن، وكرهوا أن يُشاهَدوا إلا وهم في سياراتهم الفارهة مرتفعة السعر، حتى إن أحد هٰؤلاء قال لصاحبه يوماً:

«انظر إلى هٰذا العدد من السيارات ـ وكان عنده قرابة الأربع أو الخمس ـ، ولكنِّي مدين بآلاف الدنانير، وأضطرُّ أن أفعل هٰذا لمجاراة المجتمع».

وقال أحد النَّاصحين لصاحبه:

«هٰذه السيارة مكلفة، وثمنها مرتفع، فلو اقتنيت دونها؛ لأجزأت وقضت الحاجة».

فقال له:

«إنَّني بحكم عملي وعلاقاتي الاجتماعية مضطر لاقتناء مثل هٰذه السيارة، وإن لم أفعل لا أحظى بإلقاء السلام من الأصحاب».

* لا تغرَّنَّكم الكثرة يا أصحاب المظاهر الخاوية:

اقرؤوا القرآن العظيم، تجدوه يذمّ الكثرة ويمتدح القلة.

أما في القلّة؛ فاسمعوا قوله سبحانه:

١ - ﴿وقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾[١].

٢ - ﴿ومَا آمَنَ مَعَهُ إلاّ قليلٌ﴾[٢].

٣ - ﴿وإنَّ كثيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وقَليلٌ ما هُمْ﴾[٣].

٤ - ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلين . وقَليلٌ مِنَ الآخِرينَ﴾[٤].

٥ - ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إلاَّ قَليلاً مِنْهُم﴾[٥].

٦ - ﴿ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إلاَّ قَليلاً﴾[٦].

٧ - ﴿قَليلاً مَا تَشْكُرونَ﴾[٧].

وقال سبحانه وتعالى في ذمِّ الكثرة:

أ - ﴿ويَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾[٨].

---

(١) سبأ: ١٣.

(٢) هود: ٤٠.

(٣) ص: ٢٤.

(٤) الواقعة: ١٣ و١٤.

(٥) البقرة: ٢٤٦.

(٦) النساء: ٨٣.

(٧) السجدة: ٩.

(٨) التوبة: ٢٥.

٢ - ﴿وكَثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذابُ﴾[١].

٣ - ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلكَ في الأَرْضِ لَمُسْرِفونَ﴾[٢].

٤ - ﴿وإِنَّ كَثيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ﴾[٣].

٥ - ﴿وإِنَّ كَثيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٤].

٦ - ﴿وإِنَّ كَثيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلونَ﴾[٥].

٧ - ﴿وإِنَّ كَثيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ﴾[٦].

٨ - ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثيراً﴾[٧].

٩ - ﴿ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرونَ﴾[٨].

١٠ - ﴿وإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ﴾[٩].

١١ - ﴿ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمونَ﴾[١٠].

١٢ - ﴿ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[١١].

---

(١) الحج: ١٨.

(٢) المائدة: ٣٢.

(٣) المائدة: ٤٩.

(٤) الأنعام: ١١٩.

(٥) يونس: ٩٢.

(٦) الروم: ٨.

(٧) يس: ٦٢.

(٨) البقرة: ٢٤٣.

(٩) الأنعام: ١١٦.

(١٠) الأعراف: ١٨٧.

(١١) هود: ١٧.

١٣ - ﴿بَلْ أَكْثَرُهُم لا يَعْقِلونَ﴾[١].

١٤ - ﴿فأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾[٢].

١٥ - ﴿ولٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«عُرِضَت عليَّ الأمم، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهط، والنبيَّ ومعه الرَّجل والرَّجلان، والنبيَّ وليس معه أحد، إذ رُفِعَ لي سوادٌ عظيمٌ، فظننتُ أنَّهم أمَّتي، فقيل لي: هٰذا موسى وقومُه، ولكن انظر إلى الأفُق، فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هٰذه أمَّتك، ومعهم سبعون ألفاً يَدْخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب، هم الذين لا يسترقون[٤]، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون»[٥].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يجيء النبيُّ يوم القيامة ومعه الرجل، والنبيُّ ومعه الرَّجلان، والنبيُّ

---

(١) العنكبوت: ٦٣.

(٢) الإسراء: ٨٩.

(٣) الأنعام: ١١١.

(٤) ولم أورِد كلمة «لا يرقون»؛ لشذوذها سنداً ومتناً.

قال شيخنا في «صحيح الجامع» تعليقاً على هٰذا الحديث:

«قوله: «لا يرقون» هو مما تفرَّد به مسلم دون البخاري وغيره، ثمَّ هو شاذٌّ سنداً ومتناً؛ كما بيَّنته في محلٍّ آخر، وحسبك دليلاً على شذوذه أنَّ النبيَّ ﷺ قد رقى غيره أكثر من مرة»!

(٥) أحمد في «مسنده»، والبخاري، ومسلم، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٣٨٩٤).

ومعه الثلاثة، وأكثر من ذٰلك»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ. . . فطوبى للغرباء».

قيل: من هم يا رسول الله؟

قال: «الذين يَصْلُحون إذا فَسَدَ الناس»[2].

وهٰكذا امتدح الله تعالى القلَّة، فقليل من يشكر، وقليلٌ مَن يؤمن، وقليل من لا يبغي، وقليل مَن لا يتـولَّى في المعـركة، وقليل من لا يتبع الشيطان، والصالحون هم الغرباء.

وذمَّ الله تعالى الكثرة، فلم تغنِ عن المسلمين شيئاً حين أعجبتهم يوم حُنين، وكثيرٌ حقَّ عليه عذاب الله سبحانه، والمسرفون هم الكُثْر في الأرض، والفِسْق والغَفْلة هما الغالبان على الناس، والكثيرون على الكفر والشرك، وأكثر الناس من غير الشاكرين، وأكثر الناس يجهلون ولا يعلمون.

ويجيء النبيُّ يوم القيامة ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذٰلك، فأتباع الأنبياء والرسل قليلون، وأتباع الشيطان والهوى كثيرون.

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد في «مسنده»، والنسائي، وابن ماجه، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٧٨٨٩).

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وغيرهم، وهو في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٢٧٣).

ورواه مسلم في كتاب الإيمان؛ دون قوله: «قيل: مَن هم يا رسول الله. . .».

روى اللالكائي في «السنة» (رقم ٥٠) عن سفيان الثوري أنَّه بعث ليوسف بن أسباط قائلاً:

«يا يوسف! إذا بَلَغَك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سنَّة؛ فابعث إليه بالسلام، وإذا بَلَغَكَ عن آخر بالمغرب أنَّه صاحب سنَّة؛ فابعث إليه بالسلام، فقد قلَّ أهل السنة والجماعة».

*** فتنة المظهريَّات عند الدَّجّال:**

ولا يغيبنَّ عن البال أنَّ الدَّجَّال يأتي الناس من طريق المظهريات والشكليَّات والمادِّيات، فيُفتن فيه الناس، ويتَّبعونه، ويعبدونه من دون الله تعالى.

عن حذيفة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يخرج الدَّجَّال ومعه نهرٌ ونار، فمَن دَخَلَ نهرَه؛ وجَبَ وزرُه، وحُطَّ أجرُه، ومَن دَخَل ناره؛ وَجَب أجرُه، وحُطَّ وزره، ثمَّ إنما هي قيام الساعة»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«ألا أحدِّثُكُم حديثاً عن الدَّجَّال ما حدَّث به نبيٌّ قبلي قومه؟ إنَّه أعور، يجيء معه بمثال الجنَّة والنار، فالتي يقول: إنها الجنة. هي النار، وإني أنذركم به كما أنذَرَ به نوحٌ قومه»[2].

---

(١) رواه أحمد في «مسنده»، وأبو داود، والحاكم في «مستدركه»، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٧٩٠٥).

(٢) رواه البخاري، ومسلم.

وفي الحديث:

«إنَّ الدَّجَّال يخرُجُ، وإنَّ معه ماء وناراً، فأمَّا الذي يراه الناسُ ماءً؛ فنار تحرق، وأمَّا الذي يراه الناس ناراً؛ فماء بارد عذْب، فمَن أدركَهُ منكُم؛ فلْيَقَعْ في الذي يراه ناراً؛ فإنه عذْب طيِّب»[1].

وعن النوَّاس بن سمعان رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«غيرُ الدَّجَّال أخوفني عليكم، إن يخرجْ وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإنْ يخرج ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيج نفسِه، والله خليفتي على كل مسلم؛ إنَّه شابٌّ قَطَطٌ[2]، إحدى عينيه كأنها عنبةٌ طافيةٌ[3]، كأنِّي أشبِّهه بعبدالعُزَّى بن قَطَن، فمَن أدركه منكم؛ فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف؛ إنَّه خارجٌ خَلَّةً[4] بين الشام والعراق، فعاث[5] يميناً، وعاث شمالاً، يا عباد الله! فاثبتوا».

قالوا: يا رسول الله! ما لَبْثُهُ؟

قال: «أربعون يوماً، يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجُمُعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قالوا: يا رسول الله! فذلك اليومُ كسنةٍ أتكفينا فيه صلاةُ يوم؟

---

(١) متفق عليه.

(٢) أي: شديد جعودة الشعر.

(٣) أي: ناتئة مرتفعة، ذهب نورها إلا بصيصاً منه.

(٤) أي: طريقاً بينهما.

(٥) العيث: أشد الفساد، والإسراع فيه.

قال: «لا؛ اقدُرُوا له».

قالوا: وما إسراعه في الأرض؟

قال: «كالغيثِ استدبرته الريح[1]، فيأتي على القوم، فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتُنْبِت، فتروح عليهم سارحتُهم[2] أطول ما كانت درّاً[3]، وأشبعه ضروعاً، وأمدَّه خواصر[4]. ثم يأتي القوم، فيدعوهم، فيردُّون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمْحِلين[5] ليس بأيديهم شيءٌ من أموالهم. ويمرُّ بالخَرِبَة[6]، فيقول لها: أخرجي كنوزَك، فتتبعُهُ كنوزُها كيعاسيب النَّحل[7]. ثمَّ يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً[8]، فيضربه بالسيف، فيقطعه جَزْلتين[9] رَمْية الغَرَض[10]، ثم يدعوه، فيُقبل ويتهلَّل وجههُ ويضحك. فبينما هو كذلك إذ بعَثَ الله

---

(١) قال ابن الملك:

«الجملة (استدبرته الريح) حال أو صفة للغيث، و(ال) فيه للعهد الذهني، والمعنى أنَّ هذا مثال لا يدرك كيفيته، ولا يمكن تقدير كميته» «تحفة الأحوذي».

(٢) المال السائم، والماشية التي تذهب إلى المرعى.

(٣) أي: لبناً.

(٤) لامتلائها من الشبع.

(٥) المحل: انقطاع المطر، وما ينجم عنه من يبوسة الأرض والكلأ.

(٦) الموضع الخراب.

(٧) أي: جماعته.

(٨) أي: في عنفوان شبابه.

(٩) أي: قطعتين.

(١٠) الغرض: الهدف الذي يُرمى إليه، والمراد: مقدار ما بينهما رمية الهدف.

المسيح ابن مريم، فينــزل عنــد المنــارة البيضــاء شرقي دمشق، بين مهرودتين[1]، واضعاً كفَّيه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسه قطَر، وإذا رفَعَهُ تحدَّر منه جُمانٌ[2] كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافرٍ يجد ريح نَفَسِه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرْفه، فيطلبه حتى يدركَه بباب لُدٍّ، فيقتله، ثم يأتي عيسى قومٌ قد عصَمَهُم الله منـه، فيمسح عن وجوههم، ويحدِّثُهم بدرجاتهم في الجنَّة»[3].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ؛ قال:

«ليس من بلدٍ إلا سيطؤه الدَّجَّال؛ إلَّا مكة والمدينة، وليس نَقْب من أنْقـابهـا إلا عليه المـلائكـة صافِّين تحـرسُها، فينزل بالسَّبخة، فترجف المدينة ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كلُّ كافرٍ ومنافقٍ»[4].

وعن أنس رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«يتبع الدَّجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطَّيالسة[5]»[6].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه؛ قال: ما سأل أحدٌ رسول الله

---

(١) أي: ثوبين مصبوغين.

(٢) أي: الحبات من الفضة تُصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار.

(٣) جزء من حديث رواه أحمد في «مسنده»، ومسلم، والترمذي.

(٤) البخاري، ومسلم، والنسائي.

(٥) في «لسان العرب»: «الطيلس والطيلسان: ضرب من الأكسية، وقيل: تالشان، وهو كل ثوب أخضر».

وفي «المعجم الـوسيط» ـ بحذف يسيرـ: «الطَّالِسان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف، أو يُحيط بالبدن، خالٍ من التفصيل أو الخياطة [تالسان أو تالشان]».

(٦) رواه أحمد في «مسنده»، ومسلم في «صحيحه».

ﷺ عن الدَّجَّال أكثر ممَّا سألتُه، وإنَّه قال لي:

«ما يضرُّك»؟

قلتُ: إنَّهم يقولون: إنَّ معه جبل خبز ونهر ماء!

قال: «هو أهون على الله من ذٰلك»[1].

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ سَمِعَ بالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عنهُ[2]، فواللهِ إنَّ الرَّجُلَ ليأْتيهِ وهو يحسبُ أَنَّهُ مؤمن، فيتَّبعه، مما يبعثُ بهِ مِن الشبهات»[3].

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«يا أيُّها الناس! إنَّها لم تكن فتنةٌ على وجه الأرض، منذ ذَرَأَ الله ذرِّيَّةَ آدَمَ، أعظم من فتنة الدَّجَّال».

وذكَرَ الحديث إلى أن قال:

«وإنَّ مِن فِتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إنْ بعثتُ لك أباك وأمَّك؛ أتشهدُ أنِّي ربُّك؟ فيقول: نعم. فيتمثَّل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بنيَّ! اتَّبِعْه؛ فإنه ربُّك.

وإنَّ مِن فتنته أن يُسلَّط على نفسٍ واحدة فيقتلها، ينشرها بالمنشار حتى تُلقى شِقَّين، ثم يقول: انظروا إلى عبدي هٰذا؛ فإنِّي أبعثُه ثمَّ يزعم

---

(١) متفق عليه.

(٢) أي: فليبْعِد عنه.

(٣) رواه أحمد في «مسنده»، وأبو داود، والحاكم في «مستدركه»، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٦١٧٧)، وفي «المشكاة» برقم (٥٤٨٨).

أنَّ له ربّاً غيري، فيبعثُه الله، ويقول له الخبيث: مَن ربُّك؟ فيقول: ربِّيَ الله، وأنتَ عدوُّ الله، أنت الدَّجَّال، والله ما كنتُ قطُّ أشدَّ بصيرةً بك مني اليوم.

وإنَّ مِن فتنتـه أن يأمر السماء أن تُمْطِر، فتُمْطِر، ويأمر الأرض أن تُنْبِتَ، فتنبت.

وإنَّ مِن فتنته أن يمرَّ بالحيِّ فيكذِّبونه، فلا يبقى لهم سائمةٌ[1] إلا هَلَكَت»[2].

وعن هشام بن عامر رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«مَا بينَ خَلْقِ آدَمَ إلى قيامِ الساعة أمرٌ أكبر من الدَّجَّال»[3].

وهٰكذا يلحظ المتأمِّل عِظَم فتنة الدجَّال، فليس هناك من فتنة أكبر من فتنته، بين خلق آدم إلى قيام الساعة.

معه نهر ماء، وجبل خبز، يأتي بمِثال الجنة والنار.

إسراعه في الأرض كالغيث استدبرته الريح.

يقـول للسماء: أمطري؛ فتمطر، وللأرض: أنبتي؛ فتنبت، ذٰلك لمن آمن به، وأما من ردَّ عليه قوله وكفرَ به؛ فإنها الفتنة بالجدْب والمَحْل وانعدام المال.

---

(١) هي الدابة الراعية المرسلة في مرعاها.

(٢) رواه ابن ماجـه، وابن خزيمـة، والحاكم في «مستدركه»، والضياء، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٧٧٥٢).

(٣) رواه مسلم وغيره.

من الأرض الخراب يُخرج الكنوز بقوله: أخرجي كنوزك.

يطأ البلاد كلَّها إلا مكَّة والمدينة، تتْبَعُه الآلاف المؤلَّفة.

يقول للأعرابيِّ: أرأيتَ إن بعَثْتُ لك أباك وأمَّك؛ أتشهد أني ربُّك؟ فيقول: نعم. فيتمثَّل له شيطانان في صورة أبيه وأمِّه، فيقولان: يا بنيَّ! اتّبعْهُ؛ فإنه ربُّك.

يقتل أحد المؤمنين بالمنشار، ويُلقيه شقَّين، فينظر الناس إليه وقد بُعِث[1].

مظهريات كثيرة هائلة مرعبة مدهشة، انخدع بها الكثير من الناس، فآمنوا به، واتَّبعوه، وعبدوه من دون الله تعالى.

مظهرية كثرة الأتْباع، مظهرية الطعام والشراب، مظهرية السرعة، مظهريات خارقة للعادة!

بيْد أنَّ العاقل اللبيب لا يغيب عن باله، ولا يذهب عن ذهنه قول رسول الله ﷺ:

«... فإنْ أُلبِسَ عليكم؛ فاعلموا أنَّ ربَّكم ليس بأعور، وأنَّكم لن ترَوْا ربَّكم حتى تموتوا»[2].

كما لا يغيب عن فؤاده أيضاً قوله ﷺ:

---

(١) لفظ الحديث: «فيبعثه الله»، وهذه فتنة عظيمة يظن بها من يظنُّ أن الدجال هو الذي بعَثَه.

(٢) جزء من حديث رواه أحمد في «مسنده»، وأبو داود، وهو من «صحيح الجامع» برقم (٢٤٥٥).

«مَا مِن نبيٍّ إلا أنذر أمَّتَه الأعورَ الكذَّاب، ألا إنَّه أعور، وإنَّ ربَّكم ليس بأعور، مكتوبٌ بين عينيه (ك ف ر)[1].

وفي زيادة لمسلم: «مكتوبٌ بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب»[2].

أوَليست هٰذه كافية لدحْضِ كل مظهريَّات الدجَّال وفِتَنِه؟

أولى به قبل أن يقوم باستعراضاته وإبراز قُدراته المزعومة؛ أن يُزيل كلمة الكفر من بين عينيه، وأن يُذْهِبَ العَوَر الذي أحلَّه الله سبحانه به.

أيريدُ العاقل اللبيبُ أكثرَ من هٰذا؛ ليكفرَ بالدجَّال ويؤمن بالله تعالى؟

ولنا وقفة مع رجل من المؤمنين، مع نموذج من النماذج الفاضلة، التي ينبغي أن نضعها في أفئدتنا، وبين ناظرينا، ذٰلك الرجل الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «هٰذا أعظم الناس شهادة عندَ ربِّ العالمين...».

فكيف نال هٰذه المنزلة؟! وبمَ استحقَّ بفضل الله هٰذه الشهادة؟!

يجيبنا عن هٰذا أبو سعيد الخُدري رضي الله عنه فيما يرويه عن رسول الله ﷺ إذ يقول:

«يخرج الدَّجَّال فيتوجَّه قِبَلَه[3] رجلٌ من المؤمنين، فتَلْقاه المسالح[4].

---

(١) متفق عليه.

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (كتاب الفتن).

(٣) أي: جهته.

(٤) الخفراء والطلائع.

ـ مسالح الدَّجَّال ـ، فيقولون له: أين تعمِد[1]؟ فيقول: أعمِد إلى هٰذا الذي خَرَجَ. قال: فيقولون له: أوَما تؤمن بربِّنا؟ فيقول: ما بربِّنا خفاء! فيقولون: اقتلوه. فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربُّكم أن تقتلوا أحداً دونه؟ فينطلقون به إلى الدَّجَّال، فإذا رآه المؤمن؛ قال: يا أيها الناس! هٰذا الدَّجَّال الذي ذَكَر رسول الله ﷺ، فيأمُرُ الدَّجَّالُ به، فيُشَبَّحُ[2]، فيقول: خذوه وشجُّوه. فيوسَعُ ظهرُهُ وبطنُه ضرباً، فيقول: أوَما تؤمن بي؟ فيقول: أنت المسيح الكذَّاب. فيؤمر به، فيؤشر[3] بالمنشار من مفرقه[4] حتى يُفرَّق بين رجليه، ثم يمشي الدَّجالُ بين القِطعتين، ثم يقول له: قم. فيستوي قائماً، ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازدَدْتُ فيك إلا بصيرة. ثم يقول: يا أيها الناس! إنَّه لا يفعل بعدي بأحدٍ من الناس، فيأخذه الدجَّال ليذبحه، فيُجعَلَ ما بين رقبته إلى تَرقُوته[5] نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً، فيأخذ بيديه ورجليه، فيَقْذِف به، فيحسِب الناسُ أنَّما قَذَفَه إلى النار، وإنَّما أُلقي في الجنة».

فقال رسول الله ﷺ: «هٰذا أعظم النَّاس شهادة عند ربِّ العالمين»[6].

سأله جند الدجال: أوَما تؤمن بربنا؟ فما جوابه؟

---

(١) تذهب وتقصد.

(٢) أي: يُمدّ على بطنه.

(٣) أي: ينشر.

(٤) أي: وسط رأسه، وهو الموضع الذي يُفرق فيه الشعر.

(٥) هي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق.

(٦) عن «صحيح مسلم» (كتاب الفتن).

. . . ما بربِّنا خفاء!

فكيف خفي إذن على الكثير من الناس؟!

إنَّه تعلَّم صفات الله تعالى من كتاب الله سبحانه، ومن سنة رسول الله ﷺ، فإيمانُه أكثرُ رسوخاً من الجبال الراسيات، وهو أكبر من أن تزحزحه شبهات الدَّجَّال.

ثمَّ إنَّ هٰذا الرجل المؤمن حين رأى الدَّجَّال حَذَّر منه بقوله: «يا أيها الناس! هٰذا الدَّجالُ الذي ذَكَر رسول الله ﷺ». . . إنَّه يتذكر أحاديث رسول الله ﷺ المتعلِّقة بالدَّجَّال، يتذكَّر تحذيره عليه السلام، فينزله منزله، ويضعه في موضعه.

وماذا بعد أن يوسع ظهره وبطنه ضرباً؟

ثمَّ ماذا بعد سؤال الدجَّال عن الإيمان به؟

الجواب بديع، جواب مؤمن بالله تعالى، جواب من اعتصم قلبه بالله تعالى، جواب من اعتصم بسنة النبي ﷺ. . . «أنت المسيح الكذَّاب».

فيلْتهبُ قلب الدجَّال غيظاً، ويشتعلُ صدره غضباً، فيأمر بالمنشار ليؤشر من مفرق رأسه حتى يفرِّق بين رجليه، ثم يمشي عدوُّ الله تعالى بين القطعتين، ثم يقول له: قم.

وهنا تتجلَّى الفتنة، ويا لها من فتنة! يستوي المؤمن قائماً، فيسأله الدجَّال: أتؤمن بي؟ فيكون جوابه: ما ازددتُ فيك إلا بصيرة، ما ازددتُ فيك إلا كُفراً، ما ازددتُ بالله إلا إيماناً وتوحيداً.

إنَّه الإيمان بالله تعالى على بصيرة، وأنْعِمْ بهِ من إيمان!

ولِمَ ازدادت بصيرتُه وعَظُم إيمانه؟ لأنَّ هٰذا الذي يجري معه، تقدَّم من حديث رسول الله ﷺ، وليس هٰذا فحسب؛ فإنه يعلم أنَّ الدَّجَّال لن يُسلَّط على أحدٍ بعده أيضاً، فيبلِّغ هٰذه الأمانة قبل فراقه الحياة بقوله: «يا أيها الناس! إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس».

وهٰكذا حطَّم ذٰلك المؤمن الصادق جبال المظهريات وأودية الشكليات بتمسُّكه بكتاب الله سبحانه وتعالى وسنة الرسول ﷺ.

كم فُتِن بالدَّجال من أحد! وكم ارتدَّ من أناس! وكم كَفَر وضلَّ مِن الخَلْق بالكثرة والخوارق والمظاهر! لأنهم لم يجعلوا النصوص في القلوب؛ للتمييز بين الحقِّ والباطل، بل اتَّخذوا الشكليات والمظاهر سبيلاً لهم وطريقاً، فضلُّوا وتاهوا وضاعوا، ألا بئس السبيل الذي نهجوه، والطريق الذي اختاروه.

***** *أمراضٌ يُعافى منها محبُّو المظهريَّات والشكليَّات:*

١ ـ الرياء.

٢ ـ الكِبْر من أن يُروا على حال متواضعة.

٣ ـ غمط الناس واحتقارهم.

٤ ـ حبُّ العلوِّ.

٥ ـ ضعف الشخصيَّة والثِّقة بالنفس.

٦ ـ الخوف من الناس، وقلَّة الخشية من الله تعالى.

٧ ـ العلم بالدُّنيا والجهل بالدِّين.

٨ ـ القعود عن العمل والنفور منه.

* ***نداء إلى الحكام والمحكومين في العالم الإسلامي:***

اتَّقوا الله في المظاهر التي تكلِّف آلاف آلاف الدراهم، في مظاهر لا تجدي ولا تنفع.

اتَّقوا الله في أموال المسلمين، يوم تقفون بين يدي الواحد القهَّار، يوم لا درهم ولا دينار.

اتقوا الله في الفقراء والمساكين.

اتقوا الله في الأرامل والثكالى.

اتقوا الله في المكروبين والملهوفين.

اتقوا الله واعلموا أنَّكم تحيَون بدون هٰذه الشكليات والمظاهر.

هناك أفواهٌ تنتظر لقيمات المتصدِّقين.

هناك دموعٌ ترتقب شعور المتعطِّفين.

إنَّ المظاهر والشكليَّات تدمِّر اقتصاد الأمة الإسلامية فاحذروها.

جمِّعوا ما تضيِّعونه للشكليات سلاحاً للأمة، فأمَّتنا مستهدفة.

اذكروا قوله ﷺ:

«إنَّ الشَّيطانَ يحضُرُ أحَدَكُم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضرَه عند طعامه، فإذا سَقَطَتْ من أحدكم اللقمة؛ فليُمِطْ ما كان بها من أذى،

ثمَّ ليأكلْها، ولا يدَعْها للشيطان، فإذا فرَغَ؛ فَلْيَلْعَقْ أصابعه؛ فإنَّه لا يدري في أيِّ طعامه تكون البركة»[1].

«. . . إذا سقَطَت من أحدكم اللقمة؛ فليُمِطْ ما كان بها من أذى، ثم ليأكلْها، ولا يَدَعْها للشيطان».

فكيف بمن يُسقِطُ ويُلقي أكوام الطعام في المزبلة؟!

كيف بمن يُطعم الشياطين ما لذَّ وطاب من المأكولات؟!

احــذروا الإســراف في منــاسبــاتكم وحفـلاتكم وأعيادكم، في استقبالكم ووداعكم، في أثاثكم ولباسكم.

احذروا إضاعة المال في أيِّ شيء ترَونه يُدخل البهجة في نفوسكم، ما كان في معصية الله تعالى؛ مخافة أن تُدخَل الحسرة في قلوبكم يوم القيامة.

انظروا أين تنفقون الأموال، فرسول الله ﷺ يقول:

«لا تَزولُ قَدمـا ابنِ آدم يوم القيامة من عند ربِّه حتى يُسأل عن خمس: عن عُمره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما عَلِم؟»[2].

ooooo

---

(١) عن «صحيح مسلم» (كتاب الأشربة).

(٢) رواه الترمذي وغيره، وانظر «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٩٦٩)، و«السلسلة الصحيحة» برقم (٩٤٦).

أيتها المظهرية

أيتها المظهريَّةُ!

حسْبُك حسْبُك!

فقد غزوْتِ المذياع والرائي[1].

غزوتِ الشارع والسوق والبيت.

غزوتِ المساجد والمصاحف...

وقبل كل هٰذا؛ غزوتِ الأفئدة والقلوب.

رأيتك في المدارس، في دفاتر التحضير، في موازين التقويم، في الوسائل التعليمية.

رأيتك في الاستقبال والوداع.

رأيتك في المعاهد والجامعات والمكاتب والدوائر والقرارات والقوانين.

رأيتك تقطِّعين الأرحام، وتُوقِعين بين الأقارب والأحباب.

---

(١) أي: التلفاز.

رأيتك تُهْلِكين الفقير؛ في استقبال الضُّيوف، وفي صنع الطعام.

رأيتُـك في الأفـراح؛ تمصِّين مال الأغنياء، وتحلبين مال الفقراء، وتذلِّينهم بالدُّيون.

رأيتـك في المآتم؛ لا ترحمين غنيّاً أو فقيراً، تتلذَّذين بالإسراف، وصرف المال بغير الحق.

رأيتـك في الحفـلات تمتـطين النِّفاق، وتركبين الكذب، وترتدين الأثواب الزاهية، وتحرِّكين الأيادي للتصفيق.

رأيتـك في تقديم المحاضرين؛ تمتدحين أبرز أعمالهم؛ لتقطِّعي ظهورهم، وتذبحي إخلاصهم، وتحبطي أعمالهم.

رأيتُك تُمتطين لكل باطل.

رأيت أنصـارك من المنـافقين والكسـالى والمـرجفين والجاهلين، ورأيت أعداءك من المؤمنين العاملين المخلصين العالمين.

رأيتهم يسخِّرونك لكل باطل وفاسد.

رأيتك حيث لا ينبغي أن تكوني.

أيَّتها المظهرية!

كم ذُرِفتْ من جَرَّائك الدموع وأفلست الجيوب!

كم نافَقتْ لأجلك النفوس وكَذَبَت الألسنة!

كم عُبِدْتِ مِن غير الله تعالى!

كم قُدْتِ مِن خلق الله تعالى إلى النار!

كم دمَّرتِ ودمَّرتِ في المجتمع!

كم هتكْتِ من سترٍ، وضيَّعْتِ مِن عباد!

كم مَنَعْتِ من هدايا، وحرمْتِ من دَعواتِ طعام!

كم وكم عطَّلتِ مِن نكاح وزواج!

كم سدَدْت من سُبُل الخير، وكم فتحتِ من سُبُل الشر!

وقانا الله منك، يا مهجة الشيطان الرجيم!

ooooo

الفهرس